كراسات استراتيچية
ترجمة

# دليل العملية السياسية

مقتطفات من كتاب « التحايل من أجل السلام »
جواب البومة على الصقور والحمائم

رونالد هيجنز



كراسات استراتيجية
ترجمة

# دليل العملية السياسية

مقتطفات من كتاب « التحايل من أجل السلام »
جواب البومة على الصقور والحمائم

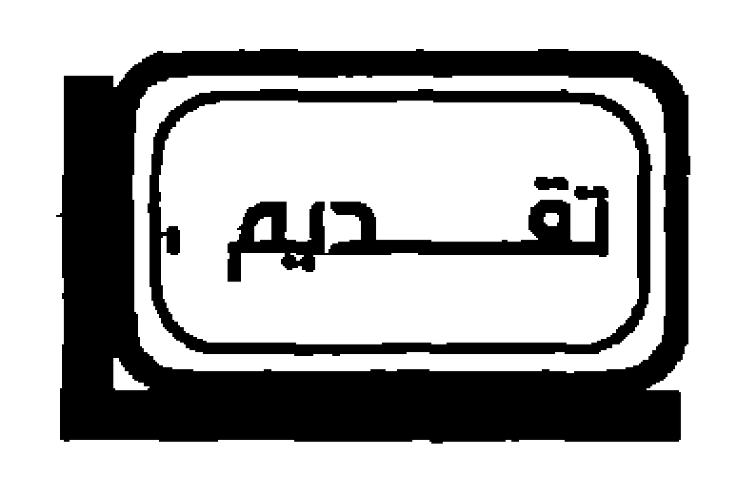
رونالد هيجنز

هذه الكراسة ترجمة لمقطفات من كتاب :

Plotting Peace
The Owl's Reply to Hawks and Doves
by
Higgins .

الناشر : دار براسير - لندن

عام ١٩٩٠




الصفحــات التاليــة هى ترجمة لأقســـام من كتاب « التحايل من أجل الســـلام » Plotting Peace الذى أعطـاه مؤلفه ، رونالد هيجنز ، عـــنواناً فرعـياً هو « جـــواب البومه على الصقـــور والحمـــائم » The Owls Reply to Hawks and Doves .

والكاتب رونالد هيجنز ، الذى بنى خبرته على العمل فى مجال العلاقات الدولية والمشاركة فى منبر للحوار فى وسط لندن ، ساهم فى العشر سنوات الأخيرة فى مناقشة المشكلات الخاصة بالأمن الدولى ويضم مئات من الخبراء والمعلقين والمسئولين الرسميين والنشطاء السياسيين ، وقد اكتسب الكاتب من خلال هذه الخبرة أسلوباً مميزاً فى عرض القضايا المعقدة الخاصة بالسلم والسلام الدوليين ومشاكل العالم المختلفة .

والكاتب يعرض فى كتابه المنشور عام ١٩٩٠ ، خلاصة خبرته والاقتراحات التى يراها ضرورية للحفاظ على سلام العالم ، وقد ضمن ذلك فى العنوان الفرعى لكتابه إذ يعتبر أن للبومة حكمتها التى تجعلها وسطاً بين الصقور والحمائم .

والأقسام المترجمة هى المتعلقة « بالعملية السياسية » وبالسياسات الستة موضع التساؤل ( للصقور والحمائم ) ، ثم بالسلام والحرب وإعادة تعريف الأمن ، وتقـدر أهميتهـا بأنها تتضمن ما يصلح دليلاً للعمل فى إطار

« العملية السياسية » إلى جانب مستقبل « الوسطية » بين المواقف المتطرفة.

وقد يكون ما توصل إليه روناله هيجنز هو انعكاس لما وصل إليه العالم من حـالة توافق واتفاق على ضرورة تجنب النهايات العنيفة للصراعات القائمة ، أو ما يسميه المعلقون اليوم العمل فى اطار نظام دولى جديد يضمن الأمن والسلام وحقوق الإنسان فى إطار قانونى متفق عليه .

وقد يكون ما وصل إليه الكاتب بخبرته السابقة إلى ما تم الاتفاق عليه مؤخراً بين الدول الأوربية وأمريكا وكندا نابعا من خبرته الشخصية فى العمل كدبلوماسى وصحفى فى المملكة المتحدة فى عصر تراجعها عن مرتبة القوة العظمى الأولى أو الامبراطورية التى لا تغرب عنها الشمس إلى دولة أوروبية فى إطار الأسرة الأوربية .

وفى كل حال من الأحوال فإن الصفحات التالية تضيف إلى ما نشر من قبل وهو قليل عن «العملية السياسية» ، وفيها الكثير مما يستحق التفكير -مع الحذر من النقل الجامد- فذلك يتعارض مع أحد أسس إدارة «العملية السياسية» التى يذكرها الكاتب نفسه ألا وهو « رفض التفكير بالشعارات البسيطة والحلول العامة الشاملة والأسباب الجذرية أو المبادىء » .

والله الموفق ،

*كراسات استراتيجية*

# السياسة عملية متصلة

مرجريت فولر : « إنى أقبل العالم كما هو » .

توماس كارلايل * : « يا إلهى ! إن هذا أفضل لها » .

عندما سئل هارولد مكميلان الذى أصبح فيما بعد لورد ستوكتون ؛ عمّا شكل له أشد المتاعب بوصفه رئيسا للوزراء – لم يقل الروس ، ولا حزب العمال ، ولا الأسلحة النووية ، ولا التضخم ، ولا العناصر المشاغبة من أعضاء حزبه ؛ وإنما أجاب بكلمة واحدة هى : الأحداث . وفى خضم العبارات الضخمة التى يتم تداولها بين السياسات والأيديولوچيات والاستراتيچيات المتنافسة ؛ يكون من دواعى الارتياح أن يتذكر المرء حدود الحكومات ، وقدرتها على التأثير . وعندما كنت طالبا فى الجامعة – فى أوائل الخمسينيات – كان الطلبة الأمريكيون يتداولون نكتة عن الرئيس أيزنهاور ؛ فيقولون إنه يصدق « أوهام المسايرة » . وبعد انقضاء عامين ؛ عندما شغلت منصبا فى وزارة الخارجية ؛ بدأت أدرك أن تحقيق المسايرة يمثّل إنجازا مرموقا .

ولا يعنى ذلك أن الأفكار السياسية ليس لها أثرها ؛ فكل من لديه خبرة عملية يعرف أن هناك – عادة – أثرا أكبر للشخصية ، والمهارة ، والأحكام المسبقة غير الواعية ، والمصالح المكتسبة ، والصدفة المحض – وكما قال بوردون : إن الإخصاب غير المتوقع يفوق كثيرا حنكة رجل الدولة .

إن إيراد أفكار كتلك ليس من باب التفكر للثقافة ؛ فالأفكار – بوجه عام – مفيدة ، وأحيانا ؛ تكون قوية . وقد تكون الأفكار المركبة هى أكثر الأفكار فائدة ، والبسيطة هى أقواها وأخطرها . وما يحدث عمليا لا يتوقف على ما يتصور رجال الدولة

---

* توماس كارلايل ( ١٧٩٥ – ١٨٨١ ) : كاتب ومؤرخ إنجليزى ، تأثر بجوته وشيلر . له مؤلف ضخم عن الثورة الفرنسية : آمن بالقيادة السياسية الفردية الداعية إلى إصلاح المجتمع ، وعرض ذلك فى مؤلفه المشهور : « الأبطال وعبادة البطولة فى التاريخ » – ١٨٤١ .

أنهم اتخذوه من قرارات ؛ بقدر ما يتوقف على تطورات لم يتوقعوها ، وربما لم يلاحظوها .

ولذلك ؛ فإن العقبة الرئيسية فى طريق رسم سياسات رشيدة ( وفى مجال إدارة الحكومات ) هى نوع من الزهو الإدارى المتمثل فى الفكرة الهزلية النابعة من تقدير الوزراء لشخوصهم ، ونفاق الموظفين ، وتصور العامة الوهمى بأن الحكومات هى الأدوات الرئيسية للتغيير . والواقع أن غالبية الحكومات - فى معظم الأحيان ، وبما فى ذلك حكومات الدول العظمى - نادرا ما تفعل شيئا أكثر من التكيف مع الأحداث ؛ وبصورة فجة ؛ غالبا . وهم - فى أكثر الأحوال - يقومون برد الفعل لا الفعل ، ويبحرون حول العقبات بدلا من إزالتها .

وقد يشك أى راديكالى مباشرة فى أن هذه حجج تستخدم للدفاع عن الجمود ، وأنها دفاع كلاسيكى محافظ عن الأوضاع القائمة . وبالرغم من ذلك ؛ فإن مسألة مدى ما نتوقعه من الحكومات من زواية الفعل ؛ لها أثر حاسم فى تحديد ما يمكن أن نطلبه منها . والاختلافات حول هذه المسألة الأساسية والدائمة هى السبب الكامن وراء كثير من الخلافات الانفعالية القاضية بشأن السياسة الدفاعية . وفى هذا الصدد ؛ هناك ثلاث مدارس أساسية هى : الخياليون ( الطوباويون ) ، والمرتابون ، والداعون إلى التحسين .

## الخياليون ( الطوباويون ) :

كثير من الطوباويين يضعون مخططا عاما للمجتمع المثالى . وهناك نماذج متباينة ظهرت على مدار تاريخ الفِكر ؛ بدءا من أفلاطون حتى ماركس . وفى المقابل ؛ هناك طوباويون أخلاقيون لا يقدمون مخططا عاما ؛ وإنما يقولون - مثلا - إن العالم يجب أن يُنظَّم من دون اللجوء إلى التهديد بالقوة . وبالإضافة إلى ذلك ؛ هناك الطوباويون الأصليون الذين يعتقدون أن كل شىء سيسير على ما يرام بمجرد التغلب على العدو .

وكغيرهم من المثاليين ؛ يريد الطوباويون أن يجنوا محصولا سياسيا وفيرا من دون فهم التربة أو المناخ وربما النبات - أيضا ، ثم إن إدراكهم للصعوبات المتصلة بالسياسات الوطنية والدولية - ضعيفٌ للغاية : فمعادلات الخيار معقدة ، والأهداف

متضاربة ، والقوى والوسائل محدودة ، وتضغط عشرات المصالح والتكتلات المتنافسة ، والتحالفات تحتاج إلى الحفاظ عليها ، ولا تتوافر الموارد والأفراد الماهرون ، ولابد من تحقيق أولويات لا تحظى بشعبية ، وعقد مساومات مربكة ؛ قد تلقى ما يبررها ، وقد تتعرض إلى الرفض والإنكار .

حتى الأنظمة الاستبدادية كالاتحاد السوفييتى والصين ؛ يتطلب الأمر فيها التوصل إلى حلول وسط غير سهلة بين المبادرات المحلية والسيطرة المركزية ، وبين التورط الداخلى والتورط الخارجى ، وبين الحاجة العسكرية المزعومة والطلب الاستهلاكى السافر . وفى الدول الديمقراطية ؛ ليست هناك سلطات ضخمة تنتظر القادم الجديد إلى البيت الأبيض أو قصر الأليزيه أو داوننج ستريت ؛ فإلى جانب القيود القانونية والدستورية والبرلمانية أو الحزبية ؛ هناك القيود المفروضة على الموارد الحكومية : المالية والاقتصادية والعسكرية ، وهناك - أيضا - مسألة جوهرية ؛ وهى إمكان إقناع الجماعات أو الفئات أو الحكومات الأخرى بالتعاون من عدمه ؛ أو - على الأقل - إقناعها بعدم المعارضة .

لا يبدو الوقت مناسبا على الإطلاق لاتخاذ تدابير جزئية : فالولايات المتحدة الأمريكية ربما تكون على وشك إجراء انتخابات منتصف المدة ، واليابانيون قد يكونون مشغولين بفضيحة مالية ، واليونانيون والأتراك مشغولون بتوترات متبادلة ، بينما الحكومة الإيطالية توشك أن تستقيل - ذلك كله فى جانب الحلفاء وحده ؛ لكن الجانب الأكبر من إصلاح السلطة الدولية يعتمد - أيضا - على الاتفاق مع محايدين تساورهم الشكوك ، ومع معارضين - فى الوقت الحالى - يمكن أن يتحولوا إلى أعداء ، وهؤلاء - بالمثل - لهم أولوياتهم وجداول أعمالهم ، ومتاعبهم .

ومثلما نرى ؛ فإن جميع الحكومات - تقريبا - مشغولة بهمومها الجارية ؛ بدرجة تمنعها من الاهتمام بالمشكلات الطويلة الأمد . فإذا حدث انهيار فى وول ستريت ، أو تسرب هائل للنفط ، أو انفجرت قنبلة أحد الإرهابيين فى طائرة جامبو ، أو اندلعت حرب أهلية فى جنوبى آسيا - فإنه ( يعنى أى حدث منها ) سيسيطر على وسائل الإعلام عدة

أيام ، وقد يرى البعض فيه انعكاسا لأخطار عميقة الجذور . وبرغم ذلك ؛ فالمألوف فى التطبيق العملى أن تعالج الأعراض المباشرة دون الأسباب الطويلة الأجل . فمن الأيسر كثيرا عقد اجتمـــاعات مظهرية ، وإحـــداث الضجة المناسبة علـى شـاشات التلفزيون ( ويفضل أن تجمع بين تهدئة الخواطر واستنكار الوقائع ) ؛ بدلا من القيام بعمل بعيد النظر قد يكون باهظ التكاليف ؛ لا يستفيد منه إلا الأجانب فى الخارج ، ومن سيخلفون الحكومة فى الداخل . وليست هناك أصوات كثيرة تُعْطَى فى الانتخابات لبُعْد النظر ، ناهيك عن التضحية .

ولذلك ، فلا غرابة فى أن يقرر قادتنا – عادة – ترك شرور الغد لحالها . وقد يبدو هذا أمرا مُشينا ؛ وخاصة فى نظر الطوباويين ... وهو – بالفعل – أمر مشين . وبالرغم من ذلك ؛ فإن كثيراً من المشكلات مستعصية بحق ، وهكذا ؛ نادرا ما يكون من الصواب « المطالبة » بحكومة عالمية ، أو تحويل السيوف إلى مناجل ؛ من دون إشارة عملية إلى كيفية تحقيق هذه المعجزات . إذن ؛ يتوجب علينا ترجمة ميولنا العامة نحو السلم والعدل إلى خيارات عملية ملموسة يدركها من نتحدث إليه . إن البعض يقولون إن « الخلاص » ممكن لو أن البشرية تخلت عن العنف أو سادتها « المحبة » أو أية صفة مماثلة ، بيد أن هذا القول تضيّق عليه الخناق العبارة المأثورة : إن البشرية فكرة ترددها الشفاه وليست قوة فاعلة تتحرك على المسرح. أما التغيير العمدى –سواء كان إلى الخير أو إلى الشر– فيأتى من جانب عدد كبير من المصادر المحددة : أفراد وجماعات ومؤسسات وحكومات ، غالبا ما تكون متعارضة . وأنا ( الكاتب ) كغيرى ؛ يمكن أن أستثار إلى حد الغضب واليأس بأقوال جوفاء تطالب بأن نعلن – بصورة جماعية ، وبشكل ما – أننا « نرفض الحرب » ؛ فأى عاقل ذلك الذى يستطيع الادعاء بأن حل مشاكل القتل والاغتصاب يمكن أن يكمن فى الرفض الجماعى للجريمة ؟

## المرتابون :

وفى أقصى الطرف الآخر المقابل للطوباويين هناك المفرطون فى الواقعية ( فوق الواقعيين ) الذين ينكرون أن للأخلاق ارتباطا حيويا بسير الأمور فى المجتمع الدولى ؛ فهم يرون أن العالم بطبيعته فى حالة فوضى ؛ فى حالة صراع من أجل البقاء بين دول

لا تستقر على حال ، وأكثرها ليـاقة لا أكثرها ورعاً هو الذى يفوز . وقد كان هوبز يرى أن حـالة الطبيعة هى حالة حرب ، وأنه لا توجد قوة مشتركة تحافظ على الرهبة بين الدول ؛ ومن ثم على النظام . وفى كتابه الليفياثان * Leviathan عبر عن رأيه بصراحة قاسية فقال : ليس لأفكار الصواب والخطأ ... العدل والظلم ؛ أى مكان ؛ فكل إنسان يسعى إلى الحصول على كل ما يستطيع ، وإلى الاحتفاظ به إلى أطول مدى ممكن .

إن هذا الرأى يخترق ضباب التعلل بالأمانى ليكشف عما تمارسه الدول ذات السيادة من جشع وتضليل ، وعن عدوانيتها وأنانيتها وصراعها السافر للتنفس . وعلى الرغم من ذلك ؛ فإن المرتاب عندما يؤكد دور المصالح - سواء كانت أنانية أو غير أنانية - فهو يشير - أيضا - إلى طريق المساومة ( مهما كانت شاقة ) باعتبارها أساسا للنظام يمكن الاعتماد عليه أكثر من التهريج الأخلاقى الذى يصدر - مثلا - عن چون فوستر دالاس ، أو الباحثين الجدد عن عبارات بين صفحات الإنجيل . وربما صحت وجهة نظر من يقولون إن الاستهتار المطهر أسلم من طيبة ذوى الغفلة ، والطموح الزائد لدى من يزعمون أنهم يعملون لإنقاذ العالم . ولحسن الحظ ؛ فإننا لسنا مضطرين إلى الاختيار بين هذين الرأيين المتطرفين .

ويشمل المرتابون - وفقا لتعريفى ( الكاتب ) - بعض الأنصار الأكاديميين المرموقين لهانز مورجنتاو * الذين ليس فى مزاجهـم أية عدوانيـة ولكنهـم مجرد « واقعيين » لا يتسمون باتساق فكرى يذكر ، ويدافعون عن شريعة الغاب ، ويتمسكون بأن الأخـلاقيات ترفٌ هامشى ، وأن الأمم لا تستجيب إلا للتهديد . وعـندما قال أحد

---

* من أشهر مـؤلفات الفيلسوف الإنجليزى توماس هوبز الذى كان ينادى بأن الحالة الفطرية للإنسان هى الأنانية ، وهى حرب الكل ضد الكل ، ثم تعاقد الناس على تكوين مجتمع والخضوع للحاكم . والعنوان الكامل للكتاب هو : الليفياثان أو المضمون والشكل والقوة لكومنولث دينى ومدنى .

* هانز يواقيم مورجنتاو (١٩٠٤ - ١٩٨٠) : مفكر سياسى أمريكى من أصل ألمانى درّس فى جامعة شيكاغو . كان يؤكد - دائما - أهمية « الواقعية » و « المصلحة الوطنية » فى السياسة الدولية من مؤلفاته : السياسة فى القرن العشرين - ١٩٦٢ .

هؤلاء – ذات يوم – وهو يقدم الرئيس ترومان إلى الجمهور : « إنه أعظم رجال الدولة فى أمريكا » ؛ علق ترومان متهكما : « ومن هو رجل الدولة على أية حال ؟ سأخبركم أنا بمن يكون ... إنه سياسى لم يعد أحد يخاف منه ! » .

ويتمسك المرتابون بأن الخوف ملازم لكيان المجتمع الدولى ذاته . ولا شك فى أن الأمر على هـذا النحو ؛ إلى حد ما ، لكن الحكومات ليست بلا ضمير تماما ( ولا هى تحسب خطـواتها تماما ) ، وأية نظرة إليها على هذا الأساس هى نظرة عاطفية معكوسة . إن هناك أكثر من مئة حكومة تلجأ إلى التعذيب ، وفى الوقت نفسه تمنح معونات خارجية ، ومعظم الحكومات – شأنها شأن الأفراد – متعددة الجوانب ومرتبكة ؛ تحـوى الطيب والخبيث ، وليس هناك عنصر واحـد – وإنْ كان الاسـتهزاء ( الريبة ) – يفسر جميع تصرفاتها . والسمعة الطيبة رصيد لا شك فى ذلك ، إلا أن المرتابين نادرا ما يوضحون ما إذا كانوا – بأقوالهم تلك – يصفون الحالة السائدة فى العالم ، أو يوصون بأن تسير الأمور على هذا النحو ، وإذا كانوا يقصدون هذا الموقف الأخير ؛ فإن الباب يكون مفتوحا أمامنا لنختار . وفضلا عن ذلك ؛ فإن المرتابين أنفسهم عادة ما ينتهى بهم الأمر إلى استخدام عبارات أخلاقية ؛ فهم يرون أن موقفهم فى جوهره أفضل وأسلم ، وليس مجرد موقف أقرب إلى الصحة : فهم أخلاقيون متخفون .

## الساعون إلى التحسين :

إن كلاً من الطوباويين والمرتابين يغالى فى تبسيط سير الأمور فى النظام الدولى؛ فكلاهما يراه كيانا متماسكا ؛ أيا كان قدر تعقيده ، بينما يراه الساعون إلى التحسين نمطا يتحول باستمرار ؛ نمطا يقوم على صفقات وعمليات تحتفظ بشكلها العام ، ولكن محتواها يتغير باستمرار ؛ شأنها فى ذلك شأن الأنهار أو شأن حديقة بريّة .

فالعلاقات المتنوعة الغنية : السياسية والاقتصادية والعسكرية والثقافية والشخصية ، بين ما يزيد على مئة وستين دولة – تخلق نوعا من « السوق » تضم مصالح شتى لجميع الدول الداخلة فيها التى تحاول الحفاظ عليها ، أو تستغلها فى عقد صفقات متبادلة على الدول الأخرى . وهناك أنماط عديدة مستمرة – بدرجة أو بأخرى – للصفقات

والمبادلات التى تقوم فيما بين الأصدقاء وفيما بين الأعداء وبين هؤلاء وأولئك . وربما كان الأخذ الحذر بهذا المنطق القائم على « المساومة » الواقعية والتجريبية ترْياقا حاسما للأخلاقية الملتهبة السائدة فى عصرنا .

لكن داعية التحسين لا يثق حتى بالنظريات التى تسعى إلى وضع رأيه هو ذاته فى كبسولة ! وهو كالطوباويين يريد إحداث تغيير جذرى ، لكنه يتمسك بأنه لا يستطيع أن يفعل ذلك خطوة فخطوة . وهو - أيضا - كالمرتابين مقتنع بالدور المركزى للقوة والمصلحة الذاتية فى جميع الشؤون البشرية ، لكنه يراها أدواتٍ صالحةً للاستخدام لأغراض بناءة .

## حرفة السياسى

إن القشعريرة التى تنتاب الطوباويين إزاء مثل هذه الحلول الوسط تدفع الساسة العمليين إلى الابتسام . فهم يعرفون أن كل من يريد إنجاز أهدافه على وجه السرعة ؛ يلجأ إلى معاملات كريهة ، وقد يلجأ إلى التصرف من دون أن يشاور أحدا . وإذْ يرفض الطوباويون قبول الحلول الوسط أو الإقرار بها ؛ تُعْقَد الصفقات غير الشريفة فى الخفاء ، ولا يلبث الفريق أن يمل الانقسامات الداخلية غير المعترف بها التى لا تلقى العلاج اللازم . وربما كان هناك مرض حتمى يصيب التجمعات وجماعات الضغط وغيرها من المؤسسات ذات الشأن التى تنكر القوة والأنانية وحب الذات بدلا من الاعتراف بها وعلاجها ( وعلى نقيض الرأى السائد ؛ فإن الكنائس - غالبا - ما تكون لها آراء سديدة فى السياسة ، وآراء غير سديدة فى الخطيئة ) .

ويهتم الساسة والديبلوماسيون العمليون - حقا - بمسألة « القدرة على الحكم على الأشياء » ؛ فَهُم خبراء فى المناورة وعقد الصفقات الصعبة بين المصالح المتعددة ؛ وفى ظل الظروف المتغيرة . والسلاح الرئيسى لهؤلاء فى هذا الصدد هو التفاوض . ويوجد كتاب لا غنى عنه فى هذا الشأن عنوانه : « الوصول إلى كلمة نعم » ؛ يبرز أهمية تقديم اقتراحات يمكن الإجابة عنها بنعم . ويعرف الساسة ما يتطلبه إقناع صديق أو عدو بعقد صفقة ، ويعرفون - أيضا - إلى أى مدى يستطيعون الاعتماد على تلك

الصفقة فيما بعد. وهذه الحرفة تحتاج إلى أشخاص غير مثاليين وغير مرتابين إلى الحد المطلق، وربما تعطى بعض الحكايات السياسية نكهة لسياسة فى محيط التطبيق العملى :

● قال إدوارد هيث وقت أن كان حاملا لأختام الملكة ؛ لسكرتير خاص شاب جديد( هو كاتب هذه السطور ) ؛ عندما اقترح إجراء انتخابات مبكرة بشأن مســـألة ما : « عجبا ! إنك لا تتطوع لإجراء انتخابات تعرف سلفا أنك ستخسرها ! » .

● قال أحد المستشارين الأكاديميين لإحدى حكومات العمال ؛ وهو يناقش مســـألة التمييز العنصرى : « هناك - فى الواقع - ثلاثة مواقف تجاه هذه المسألة ؛ هناك العنصريون التقليديون الذين لا يعبرون عن رأيهم إلا فيما بينهم ، والمتعصبون الوطنيون ( الشوفينيون ) الذين ينصبّ اهتمامهم فى الوظائف التى يشغلها البيض ، وأخيرا ؛ هناك قلة من دعاة الحرية مشغولو البال بمسألة الحقوق المدنية » .

● قال هارولد مكميلان حينما كان رئيسا للوزراء : « هل هو شخص ترحب بأن يُلقَى بك معه وسط غابة ؟ » .

● قال لورد ويلسون وهو رئيس وزراء متقاعد عن دينيس هيلى : « إنه صديقى القبضاى ... وأقولها على سبيل المديح » .

● قال أحد أعضاء الحزب عن زميل له قبيح الصورة : « إنه ليس ظريفا بقدر ما ينبىء عنه مظهره » .

● قال أحد المؤرخين : « كلما توصل الإنجليز إلى حل للمشكلة الأيرلندية غيرها الأيرلنديون » .

● قال أحد الديبلوماسيين : « إننا نحاول تصميم سلّم لتستخدمه المعارضة فى النزول إلى أسفل » .

● يسأل جميع السياسيين والمعلقين المطلعين : « هل فى وسع هذا الشخص أن يفى بوعده ؟ » .

## دليل دُعاة التحسين

## للمستجدين فى مجال السياسة

إن تأييدى القوى لموقف دعاة التحسين هو تأييد واضح . فهذا هو أعقل موقف فى السياسة ؛ لأنه يجمع بين البراجماتية والسعى إلى هدف . ولكن ليس من السهل توضيحه للآخرين ؛ ليس فى الوسع وضعه فى كبسولة أو صيغة موجزة . وقد يكون من المفيد - فى هذا الصدد - أن يقدم داعية التحسين بعض الملاحظات للمستجدين فى السياسة:

● إنك لا تستطيع أن تحصل على كل شىء ، وسيكون عليك أن تساوم باستمرار . كثيرا مايكون الحليف منافسا ، والخصم كثيرا ما يكون مستعدا لتبادل المصالح . إن كلاهما من شركائك فى مجال الأعمال : كلاهما يمكن أن يفيد ، وكلاهما يمكن أن يكون خطرا .

● احذر الكسب القصير الأجل : فهو - غالبا - عدو المنفعة طويلة الأمد . فالموقف المتشدد الذى اتخذه الرئيس كينيدى فى أزمة الصواريخ الكوبية فى العام ١٩٦٢ ؛ قد أنقص المخاطر فى الأجل الطويل . فى حين أنه ضخمها فى الأجل المباشر . لكن المنفعة المتبادلة عن طريق اتفاق يحفظ ماء الوجه أفضل بكثير من نصر لا يدوم طويلا .

● حدد أهدافك بعناية (ولتكن بشأن أوربا الشرقية ؛ مثلا) ، ثم حدد أولوياتك ، والموارد المتاحة لديك ، والتكاليف المتوقعة ، والمنافع ، والمخاطر .

● احترم عدم اليقين ؛ فليس بيننا من يعرف الكثير . والخبراء الحقيقيون لا ينسون ذلك . كن مستعدا لتغيير رأيك وموقفك - أيضا . كن مستعدا للمفاجآت والشك والتردد ؛ فمن السهل جعل الأمور أسوأ بالتأكيد ...

● احترم عدم اليقين ؛ فربما كانت هذه أقوى حجج الديمقراطيين مقابل الدوجماطيين . وهى فى الوقت نفسه تفتح الباب أمام التواضع والبراجماتية والمشاركة والحذر .

● ارفض التفكير بالشعارات البسيطة والحلول العامة الشاملة « الأسباب الجذرية » أو «المبادىء»؛ وإن اضطررت إلى استعمالها فى الدعايات الانتخابية . فليست هناك مسألة « لا غنى عنها » . والفكرة القائلة بأنه « لا بديل » فكرة تدعو إلى السخرية . هناك – دائما – أكثر من طريقة واحدة لنزع جلد القطّ .

● ازرع حديقتك ، وراقب ما يجرى خلف ظهرك . احتفظ بأصدقائك سعداء معظم الوقت ، فبغير ذلك ستفقد القدرة على جعلهم غير سعداء عند اللزوم .

● لا تمنح ثقتك لإنسان أو تسحبها كاملة – أبدا . حتى أقرب حلفائك إليك قد يتخلى عنك عند الضرورة ، وربما تفعل ذلك أنت أيضا . حتى عدوك اللدود قد يكون مستعدا للوصول إلى اتفاقات نافعة وقابلة للتحقق منها .

● فلينصب تركيزك على الأحداث والإمكانيات لا على النظريات الكبرى والآمال الأكبر . راقب واستمع وفاضل بين الخيارات ، وتحدث إلى الأصدقاء والخصوم أيضا . « الكلام المجرد » قد يكون علاجا عظيما ؛ إنه يكسب الوقت على الأقل .

● دع الأحداث الطارئة تعمل لصالحك . كن متيقظا للفرص غير المتوقعة ، وتصاريف القدر ، والمصادفات المفيدة ، وضربات الحظ المواتية لتحقيق تقدم محدود وبناء الثقة . كن مستعدا للاستفادة من جنازة شخص مهم ، أو لقاء عابر فى مطار ، أو أمسية خالية فى مؤتمر للأمم المتحدة ، أو انشغال الخواطر بكارثة طبيعية .

● التحرك السليم من أجل سبب خاطىء أفضل من تحرك خاطىء من أجل سبب سليم . فى السياسة النتائج أكثر أهمية من الدوافع .

● احذر غرور الإداريين . معظم الحكومات لها سلطة أقل و « سياسة » أقل وكفاية أقل مما تدعيه . وهى أبرع فى تحويل كفة الميزان ورأب الصدع منها فى تحقيق « المجتمع العظيم » أو « السلام فى عصرنا » احذر المزاعم الكبيرة ، وحقق الاحتياجات الواضحة . ولتعترف بأن بعضا من الجسور الدولية شيدها محترفون يتبادلون المهارات ، ومؤسسات تسعى إلى الربح ، وأفراد يستمتعون

بالتردد على الأوبرا أو بتعليم بعضهم بعضا حيلا جديدة فى لَعب الورق .

● يقول الفيلسوف الماركسى الإيطالى جرا شكى Gramsci إن التشاؤم من الذكاء والتفاؤل من قوة الإرادة . توقع الأسوأ واستعد له ، ولكن استمر فى العمل للأحسن بشكل أو بآخر .

● اهتم بالأسلوب اهتمامك بالموضوع . فما تحصل عليه ليس مطابقا لما يقال ، وطريقة العرض قد تكون أبعد أثرا من المحتوى . إن معالجة المشاعر صعبة ومرهقة ، ولكن إذا كنت لا تستطيع ذلك فابتعد عن مجال السياسة .

● « لا تقاتل ضد المشكلة » – هذا ما قاله الجنرال چورچ مارشال صاحب مشروع مارشال ، وكان يعنى أنه لا يجوز للمرء أن يعالج المشكلة لا مباشرة ولا فى مجموعها ، وإنما يجب أن يركز اهتمامه على عناصرها التى يأمل فى تغييرها . فالمشكلة ليست روسيا – مثلا – وإنما هى هذا الشكل أو ذاك من تصرفات الروس ؛ وبعضه نستطيع أن نغيّره وبعضه لا نستطيع أن نغيره .

● « اجعل المشكلة مشكلتك » . وكما فى مجال العلاج النفسى ، يجب أن نعرف دورنا الخاص فى المشكلة ؛ سواء كان عاطفيا أو عقليا ، وبذلك فقط نستطيع أن نشجع غيرنا من الأفراد أو الحكومات على تحمل المسئولية عن حصتهم .

● اترك – دائما – مجالا لاستنتاج ثان . لا تطمئن إلى رد الفعل السريع والفــورى ولا للحكم المسبق الأيديولوچى ، ولا للمخاطر الأخرى « لسياسة الإقناع » .

● داوم على التحرك إلى الأمام فبرغم جميع الأسباب الداعية إلى الحذر ، يجب على الساسة والحكومات أن يستمروا فى السير إلى الأمام . فللسلبية مخاطرها أيضا ، وبالإضافة إلى ذلك ...

● يحسن أن تكون جسورا فهناك أوقات تتطلب مواقف جديدة تماما ؛ كموقف ديجول من الجزائر ، وموقف نيكسون من الصين ، وموقف السادات وبيجن من العلاقات المصرية الإسرائيلية ، والثورة المضادة التى أعقبت حكم ماو

فى أواخر السبعينيات ، وبيريسترويكا جورباتشوف ، والمبادرات الأخيرة التى قدمها ياسر عرفات تجاه إسرائيل .

## هل مِنْ علاج سياسى ؟

إن ملاحظات كتلك توحى بأننا يجب أن نناقش فكرة وجود « علاج السياسى » ؛ فكما أن للسياسة أمراضها الخاصة ، يمكن - أيضا - أن يتعرض المشتغلون بها ( كمواطنين ) لمختلف أنواع العلل والخلل ؛ بعضها فكرى وبعضها عصابى إلى حد ما ؛ مما يجعلنا عديمى الجدوى بل هدامين فى استخدامنا لحق التأثير فى الأحداث .

وقدْ سمعنا جميعا أشخاصا يعلنون جازمين فى اجتماعات عامة أن كل شىء يمكن أن يصبح على ما يرام ؛ لو أننا تمكنا من التخلص من الدولتين العظميين ، والقضاء على الشركات المتعددة الجنسيات ، وتصحيح أفكار العنصريين ، وألغينا القنبلة الذرية ، وحررنا المرأة ، وعملنا على سيادة الحب والاستنارة - وكل ذلك خلال خمس سنوات أو نحو ذلك . وسمعنا - ايضا - بطبيعة الحال ؛ العبارات المألوفة المقابلة للجناح اليمينى عن القضاء على الإرهاب والحياد والاشتراكية والانهزامية والأعمال الهدامة والكتابات الإباحية والجريمة والتنوع الجنسى . وكل من النوعين يمكنه الاستفادة من العلاج .

ويجب أن يكون الهدف الأساسى للمعالج السياسى هو مساعدة الناس على يصبحوا مواطنين أكثر فاعلية ، أيا كانت آراؤهم . والشىء الوحيد الذى يتمسك به مسبقا ( أى المعالجَ السياسى ) هو العداء للأفكار المسبقة . وهو عدو للأحكام المسبقة والجمود العقيدى وخداع النفس والرضاء عن الذات . وهو قد يعترف بانحياز ما نحو « الوسط » البراجماتى ، ويسلم - تماما - بأن هذا الموقف ليس بالضرورة أفضل من بعض أشكال التطرف ، وبرغم ذلك فإنه غالبا ما يكون أفضل .

□□□□

# ست سياسات موضع تساؤل

أوليفر هولمز * : « الأنظمة تموت والغرائز تبقى » .

من الواضح أن نظرة الطوباوى إلى السياسة قريبة من نظرة الحمائم ، وأن نظرة المرتاب قريبة من نظرة الصقور . فالحمائم كالطوباويين ؛ يتطلعون إلى التغيير . أما الصقور فهم كالمرتابين فى نظرتهم إلى سير الأمور فى العالم ، ويتطلعون إلى الانتصـــار . والصلات هنا وثيقة - وإن كانت ليست كاملة ؛ بطبيعة الحال - فإذا وُجِدَ المرتابون فى وضع ضعيف فربما يأخذون بسياسات الحمائم ؛ مدفوعين بالخوف ، وإذا كان الطـوباوى فى موقف قوى - مثل ماو - فمن الممكن أن يصبح من الصقور العدوانيين ؛ سعيا إلى تحقيق مطامحه الجريئة .

أما الداعى إلى التحسين فى السياسة ؛ فأقرب ما يكون إلى ما نطلق عليه وجهة نظر البومة - وهو الموقف الذى انتهيت إليه - شخصيا - بعد فترة من العمل كجندى ، وداعية سلام ، وديبلوماسى متمسك بأصول المهنة ، و « شاب غاضب » ؛ حسب تعبير مستر هيث ، وصحفى راديكالى نوعا ما ، وداعية متحمس لشؤون البيئة ، ومنظم لاجتماعات لتبادل الآراء حول شؤون الدفاع .

والبومة يرى أن التحول حلم مستحيل ، وأن الفوز حلم متغطرس وخطر . وهو يسعى - بدلا من ذلك - إلى البقاء المشترك ؛ فى المقام الأول ، ويسعى - ثانيا - إلى الاستقرار ، وأخيرا ؛ إلى التحسين . وتنبع هذه الاهتمامات من انتباه البومة إلى العوامل غير المنطقية ، والعوامل التى يصعب التنبؤ بها فى الحياة السياسية ، ومخاطر المزيد من فقدان السيطرة عليها . وينصبّ اهتمامه الأول فى الخطر الناشىء من خطأ التفسير أو الفهم ، أو الهفوات ، أو التصعيد غير المقصود - وهذا الاهتمام يفوق خشيته

* أوليفر هولمز ( ١٨٠٩ - ١٨٩٤ ) : كاتب وشاعر وطبيب أمريكى . كان أستاذا فى كلية الطب فى جامعة هارفارد . له كتابات ساخرة كان ينشرها فى مجلة « أطلانتيك » الشهرية ، وقد جمعها فى كتاب بعنوان : « الطاغية على مائدة الإفطار » .

سباق التسلح ( كما تخشاه الحمائم ) ويفوق - أيضا - خشيته العدو ( مثلما يخشاه الصقور ) . وقبل ان نعرض سياسة البومة بشيء من التفصيل ؛ يجب أن ننظر نظرة انتقادية إلى سياسات الدفاع الثلاثة التى غالبا ما يقدمها الصقور .

يميل الحمائم إلى اقتراح المقاومة غير العنفية ، أو الدفاع غير النووى ، أو الحياد . ويميل الصقور إلى اقتراح الحرب الصليبية الإمبريالية ، أو التفوق العسكرى ، أو الردع النووى الشامل - مثلما يتمثل فى سياسة حلف الأطلنطى الكلاسيكية القائمة على الاتجاه « ذى الشعبتين » ؛ وهما الردع النووى القوى المقترن بتدابير للحد من الأسلحة يمكن التحقق منها ، وبناء الثقة السياسية .

وربما يبدو غريبا أن جميع هذه المواقف ( الاقتراحات ) الستة لها جاذبيتها ، ولكنها جميعا - كما سنوضح - غير ملائمة على الإطلاق فى الظروف الراهنة ؛ على الأقل . ولنتناول أولا أفكار الحمائم .

## الخيار الأول للحمائم : المقاومة غير العنفية

يقول بعض الحمائم إن المقاومة غير العنفية يمكن أن تقلل الخسائر والأضرار ؛ بينما تثير من العقبات السياسية والحرج السياسى ما يكفى لردع المهاجم المحتمل . وهم يستشهدون بحركة الساتيا جراها ( المقاومة السلبية ) التى طبقها غاندى فى الهند ( ضد البريطانيين الذين يلتزمون بقواعد الضمير إلى حد ما ) ، وما أنجزته الأساليب المماثلة من الاحتجاج وعدم التعاون والعرقلة فى أماكن أخرى . ومن الواضح أن المقاومة السلبية يمكن أن تكون رادعا ؛ إلى حد ما ؛ إلا إنها لا تستطيع أن توقف غازيا ذا شهية مفتوحة أو مندفعا بحافز آخر مثل هتلر أو إسرائيل . والمقاومة السلبية يمكن أن تكون إضافة لها قيمتها إلى المقاومة المسلحة ؛ لكنى لا أعتقد أنها تصلح كبديل منها ، ثم إن الرأى العام لا يقبلها ؛ عادة .

## الخيار الثانى للحمائم : الدفاع غير النووى

إن الأغلبية الساحقة من الدول المئة والستين الأعضاء فى الأمم المتحدة ؛ هى من صغر الحجم ، أو من الفقر أو التخلف ، أو هى بمنأى عن الأخطار ، أو تقع تحت حماية

دول أخرى – بحيث لا تفكر – أصلا – فى حيازة الأسلحة النووية . أما القرارات التى تتخذها الدول المشتبكة فى نزاع مستعصٍ ، و لديها جارٌ يملك – بالفعل – أو يُتوقع أن يملك أسلحة نووية – فهى قرارات أكثر تعقيدا . ومن أمثلة ذلك : الهند وباكستان ، الأرجنتين والبرازيل ، إسرائيل والدول العربية ، جنوب إفريقيا ودول المواجهة . وبعض هذه الدول يملك الأسلحة النووية ؛ بالفعل ، وبعضها يعمل بنشاط لامتلاكها . وقد أثبتت إسرائيل أنه يمكن حتى للدول الصغيرة ؛ لا أن تنتج قوة نووية كبيرة فحسب ( ومعها الصواريخ ) وإنما – أيضا – قوة ليست أقل مما لدى الصين .

ومن الواضح أنه ليست هناك حكومة يمكنها أن تتخذ القرار بالسير فى الطريق النووى باستخفاف ؛ فالمخاطر والتكاليف ضخمة ؛ بما فى ذلك خطر استثارة العدو المحتمل . وقد تكون هناك – أيضا – موانع أخلاقية . وبرغم ذلك فإن كل دولة سوف تتخذ قرارها – فى نهاية الأمر – على أساس مصالحها الخاصة لا على أساس المصالح الكونية . وإذا نظرنا إلى العلاقات غير المستقرة بين الصين وكل من الدولتين العظميين ؛ فلن يكون غريبا أن تعمل الصين على حيازة الأسلحة النووية . وهناك من يقولون إن حيازة باكستان لقدرة نووية لمواجهة قدرة الهند ؛ يمكن أن تعزز الاستقرار فى شبه القارة الهندية . وقد تصدم هذه الفكرةُ البعضَ ، ولكن يجب أن نحذر من تطبيق ما تفعله أوربا أى الكيل بمكيالين . ولا شك فى أنه سيكون من قبيل التهريج أن يتحول مؤيدو حلف الأطلنطى أو حلف وارسو إلى الإدانة المفاجئة لأحد الجانبين ؛ بشأن الردع النووى المتبادل ؛ وربما – على وجه الخصوص – من جانب بريطانيا وفرنسا .

وهناك بطبيعة الحال سلسلة من الأحداث يجر بعضها بعضا : فتخلى باكستان عن الخيار النووى سيكون أيسر إذا ألغت الهند قنبلتها الخاصة ، ولكن عند ذلك ستشعر الهند بأنها غير آمنة فى جوار الصين . وإذا كانت الصين بدورها ستفكك أسلحتها النووية ؛ فمن الواضح أنه سيكون من الضرورى أن يفعل كل من الاتحاد السوفييتى والولايـــات المتحدة ذلك أيضا . وهذه تنويعـــات على الشعار الكلاسيكى القائل « أنت أولاً » ؛ حيث يمكن أن تؤدى المصالح الذاتية والقرارات العقلية الضيقة إلى حالة من الجنون الجماعى .

والأرجح أن معظم الدول ترحب بخطة لا ثغرة فيها لإلغاء الأسلحة النووية . إلا أن الدول النووية ترفض فكرة نزع سلاحها من جانب واحد ؛ ومن ثم وضع نفسها تحت رحمة الدول النووية الأخرى ، فضلاً عن أنها لا ترى أن هناك احتمالا عمليا لإلغاء تكنولوچيا الأسلحة النووية من ذاكرة البشر . وبعد فترة ما من نشوب حرب تقليدية كبيرة سيتجه جانب أو آخر بصورة حتمية - تقريبا - إلى صنع الأسلحة النووية . وقد يستخدمها - بالفعل - عندما تكون الهزيمة داهمة . وطبقا لهذا التحليل ، لن يكون ممكنا إلغاء الأسلحة النووية بصورة دائمة ؛ فى أية حال . وحتى فى حالة فرض عقوبات دولية شديدة ؛ فإن الدولة التى تشعر بأنها معرضة للخطر يرجح أن تضع خطة سرّيّة لإعادة بناء قوتها النووية .

ويقترح البعض اتباع سياسة « دَعْنا نتظاهر بأننا نحتفظ بالأسلحة النووية لأغراض الردع ؛ بينما نحن نَعْقِد العزم سراً على عدم استخدامها فى أى وقت » . ولسوء الحظ ؛ فإن هذه الأسلحة لن يكون لها مصداقية مالم تكن صالحة للاستعمال تماما ، ومالم يكن الرجال والآلات على استعداد للتحرك من الفور . وليس فى وسع أى جهاز عسكرى أن يتظاهر لفترة طويلة بتهديد الآخرين ؛ بينما هو يستعد للتسليم . كما أنه ليس من الميسور إبقاء السياسات سراً على العدو أو الجمهور الذى سيراها مهزلة باهظة التكاليف .

والخلاصة ؛ أن سياسة الدفاع غير النووى سياسة حتمية بالنسبة إلى معظم الدول ، وهى سياسة معقولة بالنسبة إلى دول كثيرة أخرى ، ولكنها ليست سهلة أو واضحة على الإطلاق ( وأكتفى بذلك فى المرحلة الحالية ) بالنسبة إلى من يملك أعداؤهم المحتملون أسلحة نووية ؛ بالفعل .

## الخيار الثالث للحمائم : الحياد

ليس الحياد بطبيعته أفضل أو أفعل من السياسات الأخرى . وإذا كان الدفاع العسكرى فى ذاته مشروعا ؛ فإن التحالف الدفاعى لتبادل المساعدة يمكن أن يكون هو أيضا مشروعا ؛ مثلما يحدث بين الدول المجاورة لجنوب إفريقيا ؛ كمثال . ومن ناحية

أخرى ؛ فليس من الضرورى أن يكون الاكتفاء الذاتى العسكرى أو الحياد السياسى خاطئا ؛ كما فى حالة رفض السويد الانتماء إلى أى من الحلفين المرتبطين بالدولتين العظميين.

ومن الممكن أن يتخذ الحياد أشكالا شتى ؛ ففنلندا والنمسا محايدتان بناء على المعاهدات المبرمة بعد الحرب ، وسويسرا محايدة بناء على اختيار تاريخى ونصٍ دستورى ، والسويد محايدة بناء على التاريخ والاختيار وحدهما ، ومعظم بلدان العالم الثالث ظاهريا - على الأقل - محايدة ( أو غير منحازة ) فيما يتعلق بالموقف من الدولتين العظميين . وهناك عناصر عديدة تتدخل فى هذا الأمر : عدم الموافقة على كل من الأيديولوچيتين الرأسمالية والشيوعية ، المشاعر المعادية للاستعمار ، الكبرياء الوطنى المطالب بعدم التدخل ، الخوف من التورط فى منازعات الدول الكبرى ، الرغبة الإيجابية فى الوساطة ، وربما السعى إلى إنشاء « قوة ثالثة » .

ولهذا ؛ يبدو الحياد كما لو كان مبدأ سامياً ؛ غير إنه مبنى إلى حد كبير على النزعة البراجماتية . وتوجد منه صورة متشددة مثلما توجد منه صورة معتدلة : فكل من السويد وسويسرا تحتفظ بقوات تقليدية كبيرة ، ولديها دفاع مدنى قوى واستعداد جدير بالثقة للقتال ضد أى غازٍ قتالا ضاريا وفى العمق ، وكل منهما أقدر على التحدى والقتال من الدنمرك أو اليونان - كمثال - وكلتاهما من أعضاء حلف الأطلنطى .

ولكن هل تستطيع دولة كبيرة من المستوى المتوسط مثل بريطانيا أن تلتزم بسياسة الحياد ؟ هذا ممكن نظريا - بغير شك - لكنه حياد من أى نوع ؟ إن اتباع سياسة استقلال من الطراز الديجولى الجديد المسلح بالأسلحة النووية ؛ سيكون باهظ التكاليف ، ثم إنه لن يكون نوع « الحياد » الذى يريده الحمائم . بيد أن موقف عدم الانحياز السلبى الحقيقى سيكون صعبا - أيضا - بالنسبة إلى دولة لها دور كبير مثل بريطانيا ( أو فرنسا أو ألمانيا الغربية ) . وفى الوقت الذى تستطيع فيه السويد أو سويسرا أن تحتفظ بموقف خاص من حلف الأطلنطى ؛ فإن هذا الحلف ذاته يمكن أن يتفتت إذا خرج أحد أعضائه الكبار منه . وهذا بدوره سيؤدى إلى تغيير إطار الأمن

برمته . وفى الواقع العملى ؛ فإن لهذه المسائل جانبها الدولى بقدر مالها من جانب وطنى .

## خلاصة مؤقتة حول خيارات الحمائم

يظهر من هذا التحليل أن كلا من الخيارات الثلاث الرئيسية للحمائم : المقاومة غير العنفية ، الدفاع غير النووى ، الحياد – قد يكون مناسبا لبعض الدول فى بعض الظروف . إلا إنه لا يوجد بينها خيار واحد ليست له مشاكل خطيرة ، وخاصة بالنسبة إلى الدول الكبيرة . بيد أن اقتراحات الصقور المعتادة لها أيضا – كما سنرى توًا – صعوباتها الجمّة .

## الخيار الأول للصقور : الحرب الصليبية الإمبريالية

يرى الصقر المتطرف أن شعبه أو قضيته أو أيديولوچيته الخاصة ؛ لها حق واضح فى فرض سيطرتها ؛ حتى بقوة السلاح . ويمكنه أن يدافع عن ذلك بطريقتين مختلفتين : فى الصورة غير الأخـــلاقية ؛ نراه يؤكد حتمية الصراع ، وفكرة البقاء للأصلح ، والمصير الثابت للقضية التى يدافع عنها . إنها النظرة العالمية لرجال الشرطة فى نيويورك : « الأخيار ينهون القتال أخيرا » ، أو « عندما تشتد الأمور لا يبقى غير الأشداء » . ولهذا القول صبغة « واقعية » صارخة . ومما يدعو إلى الدهشة – بطبيعة الحال – أن ثمة أُناسا جادين يرددون هذه الأقوال من دون أن يرمش لهم طرف ؛ وخاصة فى العصر النووى .

أما الصورة الأخلاقية فهى صورة المؤمن المتحمس برايته الخاصة وعقيدته الخاصة ، وبأن الجانب الآخر هو جانب الشر . وهو يتحدث عن إنقاذ المضطهدين ، وعن الروابى المضيئة التى ستشرق بعد النصر .

ومن حسن الحظ أن القيادة الحالية فى كل من الدولتين العظميين ؛ لا تؤمن بأنها تستطيع أن تمارس طموحات كتلك من دون أن تحدث كارثة . وربما كان بعض من ينادون بفكرة « ومن بعدى الطوفان » فى الجانبين ؛ لايزالون يتحدثون عن الحرب المقدسة التى ستطهر الأرض من الأيديولوچية المخالفة ؛ فى نهاية الأمر . لكن بوش وجورباتشوف يعرفان أن الفوضى التى ستسود بعد الحرب لن تكون أساسا متينا لسيادة السلم والرضاء ، ويعرفان – أيضا – أن الحديث عن الحرب الصليبية يضخم درجة استعداد

العدو ، ويقلق الحلفاء ، ويضعف الوحدة وقوة العزيمة . إن هذه السياسة قائمة أخلاقيا على الغطرسة ، وهى – أيضا – سخيفة بشكل ظاهر ؛ وهذا من حسن الحظ .

## الخيار الثانى للصقور : التفوق العسكرى

يسعى بعض الصقور إلى تحقيق تفوق عسكرى كبير يجعل عدوهم المحتمل يتردد قبل أن يقترب الأمر من المواجهة ( ولْنَقُل فى العالم الثالث ) . وهو فى نهاية الأمر – أيضا – تفوق يستنفد الطاقة الاقتصادية والإرادة السياسية . غير إن هذه السياسة تجلب معها سباق التسلح ، وربما الهجوم الوقائى . والخصوم يميلون مسبقا إلى المبالغة فى قوة الطرف الآخر ؛ ومن ثم تظهر الدائرة المفرغة من الخوف المتبادل ؛ مما يزيد زعزعة الاستقرار .

ولقد كان بعض المسئولين الأمريكيين يريدون اعتصار الليمونة السوفيياتية « حتى تبرز منها البذور » . وهو ما أدى إلى فزع وعداء معظم بلدان أوربا الغربية التى تفضل الروس السمان السعداء على الروس النحاف الميالين إلى العدوان . وقد حدا ذلك بهنرى كيسنجر إلى أن يسأل « ما هو – بالله عليكم – التفوق الاستراتيجى ؟ ماذا يعنى سياسيا وعسكريا وتنفيذيا عند هذا المستوى من الأرقام ؟ ماذا تفعلون به ؟ » .

ويردّ بعض الأمريكيين – بدون تردد – بأن التفوق الاستراتيجى على كل مستوى يتيح للعسكريين الأمريكيين « أن يتغلبوا » على الدولة السوفيياتية بأى ثمن ( وَرَدَ فى هذا السياق رقم عشرين مليون قتيل أمريكى ) بشرط ألا يكون ذلك حائلا دون عودة الانتعاش الأمريكى . وإذا كنا نرفض هذا الرأى باعتباره أحمق بقدر ما هو شرير ، فما هو البديل ؟ أوّلاً يؤدى نقيض التفوق إلى إحداث عدم الاستقرار واحتمال الهزيمة بل تقديم السيطرة على البلد هديةً للخصم ؟ ولحسن الحظ ؛ فإن هناك بدائل كثيرة للتكافؤ العددى المطلق ( أيا كان المقصود بذلك ) ؛ من بينها « التماثل » ، و « التعادل الاستراتيجى » ، و « الكفاية الدفاعية » .

## الخيار الثالث للصقور : الردع النووى الشامل

هذا الخيار – فى حد ذاته – هو الأقل عدوانية بين خيارات الصقور ، وإن كان يقترن – عادة – بالخيارين الآخرين ؛ باعتباره ذراعهما الدفاعية . وظهور هذا الخيار يتيـح لنا فرصة البحث – بقدر من التفصيل – فى مسألة الردع التى طـال حولها الجـدل .

وإنى إذ أجلس هنا إلى جانب النافذة فى ظل عاصفة يناير الثلجية ؛ أرى سمّانة مستقرة على غصن شجرة توت فى حديقتنا خارج البيت مباشرة ؛ تصدر صوتا فظًا كأنه الإنذار ؛ صوتا أشبه بصوت المشط عندما يمر فوق قطعة من الخشب . وهذه السمانة تمنع الطيور الأخرى من الإغارة على ما لديها من إمدادات ثمينة من الأغذية . وعندما اقترب منها عُصْفور قبل لحظة واحدة هاجمته من الفور .

إن هناك أربعة شروط لازمة للردع المجدى : « أراضٍ محددة ، إنذار واضح ، عزم ظاهر على تنفيذه ، القدرة على إنزال ضرر أكبر من المنفعة التى يمكن أن يتوقعها الغاصب من فعلته . وهذه نقطة جوهرية ، وهى نقطة حرجة لم يفهمها القادة العسكريون – ناهيك عن الساسة – فى جميع الأحوال . والغازى فى حالتنا لن يتعرض للموت وإنما سيتعرض لضربة منقار لن تؤثر فيه كثيرا . وحتى بين الطيور فإن ضربة المنقار نادرا ما تحدث ؛ فغالبا ما يكفى مجرد إبداء الغضب والاستعداد للقتال . وباختصار ؛ فلقد كانت زمجرة متوعدة كافية لأن يطير العصفور مبتعدا .

وهذا النوع من الردع مألوف فى المجتمع البشرى مثلما هو مألوف فى المجتمع الحيوانى . وهو جزء من الأساس الذى يقوم عليه القانون والنظام ؛ حتى التهديد بالاعـتقال هو تهديد بأنواع متدرجة من اسـتخدام العنف ضد من لا يتقبلون الأمور بهدوء . وقد ظهرت أنواع متباينة من الردع بين الأمم على امتداد التاريخ المدوّن . وللردع – ككل شىء آخر – مخاطرة المصاحبة له : فلو كان التهديد أكبر مما يجب أو علنيا بدرجة أكبر مما يجب فلسوف يثير تدابير مضادة تؤدى إلى عرقلة التعاون وتضخيم الشكوك ، وقد تكون مقدمة للنزاع . ولو كان التهديد أقل مما يجب لأدى إلى استثارة

الخصم بدون حماية الضحية المحتملة . غير إن معظمنا لن يبدى معارضة آلية لتوفير قدرة على الردع ؛ بشرط أن تكون حيازتها هادئة وغير عدوانية . وحتى أصغر قوة عسكرية تنطوى على قدر من الردع ، وكذلك المقاومة اللاعنفية التى يمكن النظر إليها كتهديد بضرر أو اضطراب ؛ هى بمثابة « ردع » ؛ بدرجة أو بأخرى .

ويستتبع هذا أننا لا ينبغى أن نخلط – فى أى وقت – بين الردع عموما والردع النووى ؛ على وجـــه الخصوص . ومعاملة الأمرين على أنهما متماثلان فى الجوهر هو فى رأيى موقف مؤسف . وهو يجعل بعض الحمائم يبدون مسالمين أكثر مما هم فى الواقع ، ويجعل الصقور يبدون منطقيين أكثر من حقيقتهم ؛ فالردع النووى بقدرته الفائقة على التدمير يحتاج إلى المزيد من التروى . ولكل قناع من الأقنعة المختلفة التى يتخفى وراءها مشاكله ؛ سواء من حيث الكفاية العسكرية ، أو القدرة السياسية على الإقـــناع أو القـــبول الأخلاقى . لكننا نستطيع – لأغراضـــنا المباشرة – أن نميز بين « الردع النووى النهائى » أى القدرة فى الأوضاع الخطيرة للغاية على إنزال أضرار هائلة – من جانب ، و« الردع النووى الشامل » أى القدرة والاستعداد للرد بهذا النوع أو ذاك وهذا المستوى أو ذاك ؛ من الأسلحة النووية علىّ أى عمل عدائى ؛ سواء كان نوويا أو تقليديا – من جانب آخر . وقد يعترض القارىء بشدة على هذا التمييز ؛ لكن الفكرتين تظلان مختلفتين تماما : فالأولى أقرب إلى ما يسمى – أحيانا – الردع النووى الأدنى ، والثـــانية تكاد أن تكون تلخيصا للفلسفة التى يعتنقها فى الوقت الحاضر حلف الأطلنطى .

والشكل النهائى فى جوهره هو القدرة على تعجيز المعتدين كملجأ أخير . وهذا ردع نوى « وجودى » متبادل ، وهو ليس استراتيچية بقدر ما هو حقيقة قاسية من حقائق الحياة بين أى دولتين نوويتين متنافستين لا تثق إحداهما بالأخرى . غير إن معظم الاستراتيچات النووية تقع فى الفئة الثانية الشاملة ، ومن أمثلتها « الردع الممتد » كما يحدث عندما تنشر إحدى الدولتين العظميين مظلة ردعها فوق حلفـائها ، ومثال آخر «القوة المضادة» ؛ بمعنى انتقاء الأهداف العسكرية من دون استهداف المدن والسكان .

ويقال – عادة – إن للردع النووى الشامل المميزات التالية :

● أنه سياسة « قوية » لا تدع للخصم مجالا للشك فى تصميم المرء .

● نظرا لأنه لا لَبْس فـــيه ولا إبهام ، فمن المـتوقع أن يمنع نشوب أية حرب كـــبرى .

● أنه يستخدم أرخص تكنولوچيا ؛ بمعنى « أكبر تأثير مقابل كل دولار » ؛ بدلا من القوات التقليدية الباهظة التكاليف .

● أنه مفيد سياسيا من حيث إنقاص عدد القوات المطلوبة ( ومن ثم الضغوط التى تنشأ عن التجنيد ) ، كما أنه تأكيد قوى للإرادة الوطنية .

● يقال إنه يردع الهجوم التقليدى مثلما يردع الهجوم النووى .

● أنه يضمن مقعدا على المائدة الرئيسية ، كما يضمن القدرة على « التفاوض من مركز القوة » .

● أنه « أثبت » فعاليته منذ العام ١٩٤٥ .

● أنه يتفق تماما مع الحد من التسلح القابل للتحقق منه ، ومع اتفاقات نزع السلاح ، ومع قيام علاقة تعاونية .

● أنه لا بديل منه .

والحجج المعارضة للردع النووى الشامل والاعتمـــاد الشديد على الأسلحة النووية ( فى مقابل اعتماد « نهائى » ) – يمكن إيجازها كما يلى :

● أن مثل هذه الأجهزة المهلكة أقوى من أن تكون نافعة أو معقولة أو أخلاقية ؛ إذ ليس من الممكن – كمثال – أن تستخدم مدة طويلة على الحدود بين الألمانيتين ؛ من دون قتل ملايين من المدنيين على كلا الجانبين .

● أن الحرب النووية المحدودة تتصاعد بصورة حتمية – تقريبا – بحيث تصبح حربا شاملة .

● أن مثل هذه الحرب ستضر أو تدمر مناطق بأكملها خارج مناطق المعارك عن

طريق « الشتاء النووى » .

● أن الاعتماد الشديد على الأسلحة النووية يعزز المخاوف المتبادلة القريبة من البارانويا ، وسباق التسلح التكنولوچى ، والانتشار الأفقى والرأسى ؛ على حد سواء .

● أن المخاوف الملازمة لحدوث هجوم مفاجىء مدمر ؛ تولّد أنواعا من التكنولوچيا المزعزعة للاستقرار ، مثل : أنظمة الإنذار والإطلاق التى تعتمد على الكمبيوتر .

● أن الردع النووى الشامل يثير شكوكا حادة كفيلة بأن تفسد احتمالات التوصل إلى أى تدابير جذرية للحد من التسلح أو نزع السلاح .

● أن التوترات النووية تفزع البلدان غير المنحازة ، وتدعو إلى تدخل الدول الكبرى ، ومن ثم تسهم فى زعزعة الاستقرار بصورة عامة .

● ربما يؤدى ما يصحب ذلك من مطالبة بالسرّيّة وتعزيز الأمن الداخلى ؛ إلى إضعاف القيم والمؤسسات الديمقراطية التى تهدف تلك الاستراتيچية – بالذات – إلى حمايتها .

● أن ما يتبع ذلك من جدل عام واختلاف فى الآراء ؛ يجعل التوصل إلى اتفاق فى الآراء بشأن وسائل الدفاع أمرا من الصعب تحقيقه .

## تحية للحمائم ... وتحية للصقور أيضا !

كيف يخرج المرء من هذا القصف المتبادل من الحجج المتعارضة ؟ يبدو لى أن الخيارات الثلاث الرئيسية للحمائم تكشف جميعها عن إدراك واضح لعدم أخلاقية الحرب النووية ، وأن كلاً من الدولتين العظميين غير معصومة من الخطأ ، وأن هناك حاجة إلى التفاهم فيما بينهما . وقد يكون لديهما حساسية خاصة تجاه التكاليف المفزعة للتوتر بين الشرق والغرب ، وأثرها على المطالب الملحة لتنمية العالم الثالث والعناية بالبيئة . ولذلك ؛ فإن الحمائم جديرون بالتحية .

والصقور جديرون بذلك - أيضا ؛ فآراؤهم الثلاثة الرئيسية تعترف بالواقع القاسى للحياة الدولية ، وبغَلَبة الكبرياء الوطنى والمطامع وقصر النظر ، وبأنه لا جدوى من السياسات التى تعتمد بالكامل على الثقة وحسن النوايا .

وبرغم ذلك ، يبدو أن الحمائم والصقور يتقاسمان كثيرا من العيوب الخطيرة ؛ فكل منهما يميل إلى افتراض أن معظم الحروب تنشأ عن قصد - عن طريق الحساب الواعى من جانب الحكومات - لا عن التخبط والمصادفة والخطأ فى الحساب ، وفكرة الصقور عن الردع - شأنها شأن إيمان الحمائم بالمصالحة - تفترض ضمناً أن الحكومات تتخذ قـرارات رشيدة ؛ على أساس معلومات دقيقة ، وباستخدام منطق هادىء وتقدير المخاطر . لكن واقع الأمر - كما ذكرت من قبل - أن كثيرا من الحروب تبدأ بفقدان السيطرة على الموقف أكثر مما تبدأ بوضع مخطط عدوانى .

ويبدو - أيضا - أن كلاً من الصقور والحمائم مشغول أكثر مما يجب بمنظومات الأسلحة ؛ فهى بالنسبة إلى الصقور الأدوات اللازمة لقوة الردع ، وهى بالنسبة إلى الحمائم الترسانة المفزعة التى قد تنفجر . ولكل من الحُجتين قوتها ، لكن إضافة أسلحة أخرى لا تؤدى بالضرورة إلى زيادة القوة ، أو إلى زيادة الخطر ؛ فى عصر أصبحت فيه الأسلحة قادرة على إفناء الحياة مرات ومرات . إن كلا الفريقين - باعتبارهما من دعاة التسلح أو عدم التسلح ؛ على التوالى - يرى أن التسلح هو المقياس الحاسم للأمن أو انعدام الأمن ، وهكذا ، فإن الصقور والحمائم كلاهما يجلس على الغصن نفسه ؛ وإن كانا على طرفين متباعدين ؛ فكل منهما يؤمن - خاطئا فى اعتقادى - بخفض التسلح القابل للقياس كميا ، أكثر مما يؤمن بالتدابير غير الدرامية القائمة على المناقشة السياسية وبناء الثقة .

ويُتهم كثيرٌ من الحمائم بأنهم مثاليون غير مبالين ؛ بيد أن بعض الصقور يعانون من ذلك أيضا : فتحت القشرة الصلبة للمحارب الصليبى تقبع مثالية قلقة ، ونوع آخر من السذاجة ؛ فكيف يؤمن هؤلاء بكفاية الحكومات ؛ بحيث يتصورون أن المواجهة النووية المسلحة يمكن أن تستمر بأمان عقدا وراء عقد .

## جوانب قوة مشتركة

وأيًا كانت أخطاء كل من الجانبين الكلاسيكيين فإن لكل منهما وجهات نظر وقيم تظل باقيةً فى أية سياسة دفاعية قائمة على الإقناع . وربما يتجه إعجابنا - على وجه الخصوص - إلى استعداد الصقر المعتدل لمواجهة الحقائق القاسية ، واستعداده الخالى من العواطف للاختيار بين شرّين ، وشجاعته فى مواجهة الخطر ، وتهيُّئه لاستخدام القوة عندما يكون ذلك ضرورة حتمية . وبالمثل ؛ يمكن أن نُعجب بحرص الحمائم على استنفاد جميع السبل السلمية لتسوية النزاعات ، وبإيمانهم بقدرة البشرية على الارتفاع فوق مستوى المصالح الوطنية والعقائدية ، ويقينهم الذى لا يتزعزع بأن الحرب النووية لا يمكن أن تتفق مع الفضيلة ولا مع الفكر الرشيد .

والواقع أن الموقفين المتطرفين لهما جذورهما فى النفس البشرية ؛ فالمحارب والقديس كلاهما من أنماط الشخصية المألوفة . وأيا كانت آراؤنا الشخصية فلابد من الإعجاب بالأبطال الحقيقيين من الجانبين : تلك الصفوف الطويلة من البحارة والجنود الشجعان من جميع الرتب العسكرية ، وأبطال اللاعنف من أمثال الزعيم المجرى فرنك ديك ، والكولونل البرازيلى كانديدو رندون ، و المهاتما غاندى ، والفرنسى چان جوس . وكلا الموقفين يأخذ - أيضا - السياسة الدولية - بوجه عام - مأخذ الجد مثلما يأخذ فرص الحرب ؛ فهم ليسوا سلبيين أو لامبالين أو مستسلمين للواقع .

إن مالم يدركه معظم المشاركين فى الحوار التقليدى بشأن الدفاع ؛ هو أن كثيرا من جوانب القوة لدى الصقور والحمائم ليست متناقضة بالضرورة ، فالمسألة تتوقف إلى حد كبير على مدى التمسك بمبدأ ما ؛ أو مدى الجمود فى موقف معين . وسنرى أن كثيرا من آراء الصقور والحمائم يمكن الجمع بينها على نحو مفيد ؛ إلى درجة تدعو إلى الدهشة - بل يمكن أن تتكامل لنيشأ عنها ما أسميه موقف البومة .

## وجهة نظر البومة الحكيمة

إن هذا التكامل يتطلب منا أولا أن نستمع بانتباه إلى معارضينا ، وأن نبنى على المساحات المشتركة ، وبغير ذلك لن يكون بالإمكان إجراء تغيير حقيقى . إن البومة يمكن

أن يصـــبح له صوت ثالث قوى فى المناقشة ؛ حتى إننى أعتقد أن موقفه يجب أن يصبح بالتدريج هو توافق الآراء السائدة إذا أردنا إنقاذ النوع البشرى . وثانيا ؛ لابـــد من أن يكـــون موقف البومة ليس مجرد موقف آخر من الدفاع العســـكرى ؛ فهــذا الموقف - كمـــا رأينا - هو موقف الساعين إلى التحســـين ، وموقف الملاّح الذى يعرف تيارات السياسة ويعرف أن الأمن ليس - بأية حال - مســألة عسكرية فحســـب .

ومن يأخذ بهذا الموقف ( البومة ) يكون مرنا وبراجماتيا قبل كل شىء ، لكنه لا يكون مغلول اليدين برؤية معينة إلى المستقبل بشأن الفضيلة أو الرذيلة فى السياسة . وهو - بالإضافة إلى ذلك - واضح الفكر بشأن العمليات المرغوبة ، لكنه « لا أدرى » فيما يتعلق بالمقاصد النهائية . والبومة يشعر بتقدير حقيقى لمهنتى الدبلوماسى والسياسى ؛ لا مجرد الاحترام لهما على مضض . وأيا كان الحزب الذى ينتمى إليه فإن الجمهور يميل إلى أن ينظر إلى هذا الشخص ( البومة ) على أنه أنانى وطموح ؛ يعيش حياة ناعمة ، ويملك جاذبية سطحية ؛ مستغرق فى المؤامرات التى تحاك فى الغرف الخلفية ، ويعمد إلى تجنب اتخاذ القرارات ، ويضع حلولا وسطا لا يراعى فيها الضمير . ومن يأخذون بهذه النظرة ( البومة ) لا يقرّون بما يتسمون به من صبر وجلّد فى مهام كثيرا ما تكون قاسية ومحبطة - فحسب ؛ وإنما يمتدحون عمليات الأخذ والعطاء ، والحلول الوسط الحضارية التى لا غنى عنها للتقــدم والديمقراطية نفسها . إن البعض يرى أن المساومة ( و « التساهل » ) شرٌ لابد منه ، ومن الواجب أن يحتفى بها ؛ باعتبارها حرفة رفيعة وجديرة بالاحترام . ومما يدعو إلى الضيق أن يبدى زعيم سياسى احتقاره للحلول الوسط ، ويتباهى بأنه لم يتزحزح عن موقفه قيد أنملة .

وثالثا ؛ فإن « البومة » يسعى إلى رؤية التفاعل بين عوامل متعددة ؛ بدلا من أن ينجرف وراء نمط واحد من الأفكار ، وهو المنهج الفكرى الذى يغرى كلا من الحمائم والصقور . والبومة يتجاسر على الكشف عن افتراضات لم يتحدث عنها أحد ، وعلى مناقشة « المعتقدات » المستقرة لدى الأرثوذكس من الجانبين . وإن كان من غير

الضرورى أن يؤدى هذا المزاج المنتعش والبراجماتى إلى سلبية « سعة الأفق » ، وجمود عقيدى ؛ فالبومة يعرف أننا لا نعرف كل شىء ، وأننا قد نكون على خطأ ، وأن علينا أن نأتى بالآخرين معنا إذا أردنا للتغيير أن يتحقق .

ولذلك ؛ فإننا على حق إذ نكون غير راضين عن التفكير القديم ؛ عن الثنائية البدائية بين الحمائم والصقور ، وعن أنواع الخيارات السياسية التى ولدتها . وإذا أردنا أن نحقق ما هو أفضل فيجب علينا أن نعيد بحث الأساسيات .



# نحو العلاج

## السلم والحرب وإعادة تعريف الأمن

« هناك سبل ينبغى ألاّ نسلكها ، وقوات ينبغى ألاّ نضربها ، ومدن ينبغى ألاّ نهاجمها ، ومجالات ينبغى عدم المنازعة بشأنها » .

سون تسو ، فن الحرب ، ٥٠٠ ق . م .

قبل مؤتمر عقد فى كيوتو فى سبتمبر من العام ١٩٨٦ ؛ قال هنرى كيسنجر مخاطباً ياسوهيرو ناكاسونى الذى كان وقتها رئيسا لوزراء اليابان – إن النظرة إلى الأمن فى آسيا مختلفة تماما عنها فى أوربا . وعند ذلك أجاب ناكاسونى بقوله :

« إن الفرق أشبه بالفرق بين لوحات التصوير الأوربية واللوحات اليابانية ... ففى اللوحة اليابانية يلاحظ أن المساحات الخالية هى التى تحدد معنى الرسم ، ولهذا ؛ فهى تترك قدرا كبيرا من الحرية لإدراك المُشاهد » .

وقد استخدم كيسنجر هذا التشبيه الذى قدمه ناكاسونى لإثبات أن الجدل الدائر فى الغرب حول الأمن وصل إلى طريق مسدود ؛ بدرجة أو بأخرى ؛ مما أضر بالرؤية الإبداعية فى رسم السياسات . فمثلا ؛ لم يعالج الأمن الآسيوى منهجيا بقدر ما عولج الأمن الأوربى ؛ على الرغم من الخلافات الأساسية بينهما : فعلى النقيض من خط التفرقة الواضح فى أوربا بين الشرق والغرب والقيادات الموحدة ؛ ليس لدى آسيا خطر مشترك واحد ، وليس فيها أحلاف كبيرة ولا دبلوماسية مشتركة . وتوجد – أيضا – فروق أقل وضوحا مثل عدم مبالاة آسيا – نسبيا – بعدد الأسلحة وربما بالحد من التسلح فى ذاته ؛ فى مقابل اهتمامها بالعوامل السياسية والكونية الأطول أمدا . وبذلك تظهر المساحات الخالية فى لوحات ناكاسونى اليابانية .

إن ما نشاهده هنا ليس مجرد مقابلة بين مسرحين مختلفين : الأوربى والآسيوى ؛ وإنما بين طريقتين مختلفتين فى النظر إلى الأمور ؛ فلكل لوحة منطقها الخاص وصدقها

الخاص ، وقد تكون إحدى الصورتين أو كلتاهما مشوهة جزئيا ، ولكن يبقى لكل منهما قدرتها الوصفية الخاصة . ونحن نتحدث هنا عما يسميه علم الاجتماع السياسى « عَالَم الافتراضات » لدى صانع القرار – أى افتراضات بشأن العوامل المهمة أو المترابطة أو المناسبة أو الملحة أو المرغوب فيها . وقد تكون هذه الافتراضات من الوضوح لدى صانع القرار ، ( أو بغيضة لديه ) بحيث لا يكون واعيا بها إلا جزئيا . وربما نلاحظ أن السياسات الستة التى بحثناها سابقا ينصبّ اهتمامها الأساسى – سواء فى حالة القبول أو الرفض – فى مسائل القوة والعنف والسلاح أى البعد العسكرى . فداعية السلام يمكن أن تشغل باله الأسلحة بقدر ما تشغل بال القائد الأعلى فى الجيش ، وأقوى الخلافات قد تخفى – فى بعض الأحيان – اتفاقات فى الجوهر ؛ وإن كانت لم تبحث حول طبيعة المشكلة ؛ ومن ثم البعد الذى يجب السعى من خلاله إلى العلاج – كأن يكون ذلك البعد هو نزع السلاح أو إعادة التسليح .

وبطبيعة الحال ؛ فإن العالم الافتراضى أو المثال المشترك بين خصمين متعارضين يصعب تحديده ، ويصعب – أيضا – توجيه النقد إليه . ومن المتعذر علينا أن نقرر أن كـلا الرأيين المتعارضين مخطىء ؛ ناهيك عن أنهما مخطئان للسبب نفسه . وبهذا المعنى ؛ فإن كلا الجانبين المتطرفين يشترك فى مؤامرة غير واعية لاستبعاد « الحل الوسط » والأساليب البديلة فى التفكير .

## تحوّل المثـــــال

ومن حسن الحظ أنه يمكن قلب المثال رأسا على عقب ؛ وإن كان مثالا عريقا ومستقرا ؛ كما حدث عندما قلب كوبرنيكوس وجاليليو الرأى القائل بل الاعتقاد السائد بأن الشمس تدور حول الأرض . ولقد كان ذلك تقييما علميا جديدا له أهمية رمزية قصوى بقدر ماله من قيمة علمية . وبالمثل ؛ حطم كل من نيوتن ولافوازييه وداروين وإينشتاين نظـريات كانت هى السائدة ؛ يدافع عنها الحرس القديم ويرفض أى رأى آخر . وبطبيعة الحال ؛ يحدث – أحيانا – أن تحتفظ إحدى النظريات القديمة – مثل فيزياء نيوتن – ببعض القيمة المحـدودة ؛ برغم أننا عندما نريد مزيدا من الدقة

والشمول ؛ لابد من أن نعتمد الآن على المثال الذى وضعه إينشتاين ؛ إلى حين مجىء نظرية جديدة تغير هذا المثال .

وبطبيعة الحال - أيضا - يمكن أن تحدث تحولات عميقة فى دلالات المفاهيم الاجتماعية والسياسية مثل : الملكية ، والقانون ، والحرية ؛ وإن كانت القيم تتدخل - أيضا - فى الشئون الإنسانية . فليس فى الوسع دراسة توزيع الدخل بطريقة محايدة تماما ؛ إذ تكون هناك خلافات مشروعة بشأن إتاحة « فرص الحياة » أمام « جموع الناس » فى مقابل « حوافز رجال الأعمال » . ومن الواجب أن نلاحظ أن كلاً من الجناحين اليمينى واليسارى يسعى إلى « إحراز الثروة » بتعريفها الضيق ذاته ، وأن الاختلاف بينهما حول كيفية إنتاجها واقتسامها . وفى الوقت الحاضر ؛ يتمسك « الخُضْر » بوجوب إعادة النظر فى هذا المثال القديم المشترك ؛ مع مراعاة التكاليف الاجتماعية والبيئية الأوسع .

وفى العصر النووى ؛ نحن فى حاجة أشد إلى إعادة تقييم ما نعنيه بالأمن الدولى ، وإقامة مثال جديد قادر على احتواء المزيد من الوقائع الجديدة ، والحصول - تدريجيا - على دعم أساسى من جانب الصقور والحمائم ؛ فى الشرق والغرب ، وفى الشمال والجنوب . ومن شأن ذلك - على الأقل - أن يساعدنا فى وضع معايير ( وقيم ) أكثر تفصيلا ودقة بالقياس إلى المعايير والقيم التى يطرحها مثال العسكرى التقليدى .

## الدعوة إلى السِّلم : هل هى طريق مسدودة ؟

ماذا يمكن أن يكون عليه المثال الجديد للأمن ؟ ربما كان أبعد تغيير عن المسلّمات الحالية هو الأخذ بالدعوة إلى السلم كفلسفة سياسية لا كمجرد موقف أخلاقى فردى . وأنا - شخصيا - لا أستطيع أن أذهب إلى هذا المدى ، وسأوضح السبب فى ذلك .

ويجب أن أعترف بأنى - بحكم إعجابى بكثير من دعاة السلام ، وبحكم أننى كنت فى شبابى واحدا منهم - أجد هذا الموضوع صعبا على نفسى . وفى إطار الفكر المسيحى ؛ ربما كان جانب كبير من الألم والبلبلة راجعا إلى عدم التمسك بالتمييز القديم بين الكلمة اللاتينية Pax والكلمة العبرية Shalom . فكلمة Pax تعنى - عادة - السلام

العابر الذى يمر به مجتمع منظم - سواء كان وطنيا أو دوليا - تُحتوى فيه المنازعات عن طريق التـفاوض والعرف والقانون ؛ وفى النـهاية عن طريق التهديد بالإكراه . أما Shalom فهى السلام النهائى الذى يعلو على كل تفاهم ؛ السلام الإلهى وليس مجرد عدم وجود نزاع ، إنه صورة العدل والانسجام والعلاقات السليمة التى يربط المسيحيون بينها وبين فكرة « المجىء الثانى » .

إن Pax هى فى جوهرها مفهوم سياسى ، أما Shalom فهى مفهوم روحى . وبطبيعة الحال ؛ هناك بعض الارتباطات ؛ إذ إن السلم السياسى شرط أساسى للسلم الروحى ، والسلم الروحى يحتاج - دائما - إلى النظر إليه كما لو كان معيارا مطلقا ورؤية لصانع السلام السياسى . وبرغم ذلك ؛ فإن السلام السياسى والسلام الروحى ليسا شيئا واحدا ، وما يخدم أحدهما لا يخدم الآخر بالضرورة . وفى نهاية الأمر ؛ فإن هذا ليس مجرد تفكير لاهوتى تجريدى لكنه إحدى الحقائق التجريبية التى اختبرت بالدم على امتداد التاريخ .

وإلى جانب هذا التمييز بين باكس وشالوم ، ربما نكون فى حاجة - أيضا - إلى التمييز بين واجب الفرد منا كمواطن وواجبه ككائن حىّ : فالأول يتطلب الحلول الوسط والحسـابات الدقيقة بينما يتطلب الثانى السـعى إلى الكمال كما عبرت عنه موعظة الجبل . وهذه التفرقة بين التزاماتنا السياسية والشخصية تجعلنا نشعر بالقلق ؛ وربما يكون ذلك عن حق . لكننا يجب أن نكون واضحين - فى كلتا الحالتين - بشأن ما إذا كنا نتحدث عن أمور سياسية عملية من شؤن الحكم أو عن مطالب روحية نابعة من الالتزام الدينى .

وليست هناك حاجة إلى تقديم الحجج التى تثبت شرور الحرب وسخافتها ، أو المشاعر السامية التى تلهم من يضحون بأنفسهم ويأخذون - بشكل عملى - بموقف المقاومة اللاعنفية . ولو وصف أحدٌ مثلّ هؤلاء الداعين إلى السلم بأنهم أنانيون أو سلبيون أو جبناء أو غير وطنيين أو غير شرفاء ؛ لكان ذلك حماقة وسخفا . وسواء كان الداعية يبنى دعواه على السلطة الإلهية ، أو النصوص المقدسة ، أو صوت الضمير ، أو

ضرورات الخـــلاص – فإن ذلك أمر يختلف تماما عن قوله بـــأن اللاعنف ســوف ينتج – دائما ، أو عادة – حروبا أقل عددا أو أقصر أمدا ، حيث إن هذه المسألة مسألة تقدير عملى وليست نظرية أخلاقية . ومعظم غير المنادين بالسلم لا يمكن أن يوصفوا بأنهم غير مبالين أخلاقيا بالقتل ؛ فهم يعرفون أن التمسك بمبدأ مطلق واحد مثل « لا تقتل » يكون – فى كثير من الأحيان – خرقا لمبدأ آخر مثل « احْمِ الأبرياء » أو « دافع عن الحرية » . « فالقوانين » الأخلاقية هى خطوط توجيهية وليست تعليمات مطلقة ، وفى اعتقادى : أن هذا جزء مما يَعْنيه المسيح بقوله إنه أتى بالروح لا بالقانون . وجوهر الإطلاق هو أن يحب كل منا الآخر ، والمشكلة الأزلية هى كيف يفعل ذلك .

وبعد نقطة معينة ؛ يبدو أن الحجج المطلقة أقل قوة من التساؤلات العملية : هل يمكن أن نأسف لأن بريطانيا قررت – فى نهاية الأمر – أن تواجه هتلر ؟ أو لأن تشرشل لم يسلم بعد معركة دنكرك حمايةً للأرواح ؟ أَوَلا يمكن أن نتصور ظروفا قصوى يمكن فيها أن نحمل نحن – أنفسنا – السلاح : تأييدا لجيتو محاصر أو معسكر للاجئين الأفارقة ؟

من الواضح أن الدوافع النبيلة يمكن أن يساء استخدامها ثم تأتى بعد ذلك أخطاء الحساب ، وأن النتائج الفعلية للقتال يمكن أن تكون كارثة . هناك منحدر زلق بدون شك ، ولكن ؛ على هذا المنحدر – بالذات – يعيش الناس حياتهم . ولذلك ؛ فعلى دعاة السلام أنفسهم أن يقرروا متى يتحملون مسئوليتهم الخطيرة عن حياة الأبرياء وحريتهم . وربما يحترم المرء الصيحة العظيمة القائلة « لا أستطيع أن أفعل غير ذلك » ؛ شريطة ألاّ تنطوى تلك الصيحة علَى تنصل من التكلفة الحقيقية أو على تهرب منها .

وفى العصر النووى هذا ، بدأ يظهر شكل جديد من الدعوة إلى السلام يكاد يكون وجوديا ، وإننى لأشعر بقدر من التعاطف معه . والشاعر الأمريكى وندل بيرى يقول :

« إن الوصية التى تطالبنا بأن يحب أحدنا الآخر ؛ توشك أن تكون ضرورة عملية مطلقة ؛ على نحو لم يسبق لنا أن حلمنا به . والخيار أمامنا ليس هو المكسب أو الخسارة وإنما أن نحب أعداءنا أو نموت » .

مثل هذه الأقوال يمكن أن تحرك المشاعر بقوة ، وإن المرء ليعرف ماذا يعنى

الشاعر بها ... لكننا يجب أن نعترف بأننا لا نعرف كيف نطبق سياسة « اللاأسلحة » تلك ، وكيف نحب أعداءنا في عالم أصبح مدججا بالسلاح حتى الأسنان . ما هو السيناريو الذى يتصوره بيرى ؟ هل هو إحراق الأسلحة في بلد تلو الآخر ؛ عندما تصل إليها الدعوة ؟ ومن يفعل ما يفعل أولا ؟ إن الخطابة تصدر عن شعور عميق بيد أن الكلمات اللطيفة يجب أن تتحول إلى مقترحات مقنعة للعمل بمقتضاها .

## الحرب العادلة

كانت الوسيلة الأساسية التى حاول بها البشر تربيع الدائرة بين المبدأ والتصرف العملى ؛ هى « الحرب العادلة » . والمفهوم تقليديا أن هذه الحرب تُشن من أجل قضية عادلة ، ومن جانب سلطة شرعية ، وكملجأ أخير – مع وجود أمل واقعى فى النجاح – وبدون استخدام وسائل عسكرية مفرطة تحدث دمارا لا موجب له ، وتراعى حماية أرواح الأبرياء وممتلكاتهم ، ويعامل أسراها باحترام ، والمهزومون فيها بالرأفة .

ولهذه المعايير جاذبية كبيرة ؛ إلا إنه من المشكوك فيه أنه يمكن مراعاتها فى أية حرب حديثة . فالآن أصبحت وسائلنا العسكرية أقل تناسبا مع الأغراض المطلوب تحقيقها عما كانت عليه الطائرات التى هاجمت المدن الألمانية فى الحرب العالمية الثانية ، كما أصبحت حماية الأبرياء أمرا أكثر صعوبة ، ناهيك عن وضع تعريف لهم . وإذا كانت الأساليب الشمولية الحديثة لا تسمح بالانتقائية – وكذلك الحرب الحديثة – فالنتيجة هى أن نستخلص أنه حيث تكون الحرب عادلة فى جوهرها فلا مفرّ من القبول بالخروج على كثير من المعايير التقليدية . وسيقول الكثيرون إن موت آلاف الأبرياء قد يكون ثمنا لابد منه للدفاع عن الملايين ضد الطغيان . ولكن من الواضح أن هذه الحجة تزج بنا فى بقعة بالغة الخطورة .

يبدو أن الأمر ينتهى بنا إلى متاهة أخلاقية ، وقد تكون هذه هى الحقيقة المزعجة فى موقفنا . إن بعض فلاسفة الأخلاق لا يبدون دهشتهم من ذلك بل يتشككون فى إمكانية إقامة نظرية أخلاقية منهجية مرضية – وإن افترضت صحة مقدماتها المسيحية أو الإنسانية أو غيرهما – وكأنهم يقولون إن الحياة الأخلاقية هى أمر غير ذلك بالمرة ،

وإن هناك هوة عميقة بين إصدار أحكام أخلاقية وتحديد أساليب العمل فى ظل ظروف متغيرة ، ومعلومات جزئية ، والتزامات متعارضة .

ولا يعنى ذلك بالضرورة أن ننزلق إلى الفوضى الأخلاقية ؛ لكنه قد يعنى إيثار قدر من التواضع ، والتخلى عن المطْـلـَقات الأخلاقية وتيسير المناقشة العقلانية ؛ وخاصة حينما تقبل النتائج المتوقعة كاختبار أساسى للسياسات . وقد نحقق تقدما أفضل إذا أولينا الحقائق الجديدة القدر ذاته من الاهتمام الذى نوليه للنظريات الأخلاقية القديمة ؛ أيا كان ما تنطوى عليه من قيمة روحية .

## الثـــورة النـــووية

فى هيروشيما ؛ دقّ ناقوس الموت للنسبية فى الحرب . فمثل ذلك العمل العشوائى الجزافى كان يتطلب تقييما جديدا تماما لجميع النظريات الأخلاقية والعسكرية . صحيح أن بعض الناس ينظرون إلى الرؤوس الحربية النووية على أنها مجرد متفجرات فائقة القوة ؛ غير إن معظمنا يرفض هذا التبسيط الخطير ، ويدرك أن ثمة فوارق أساسية :

- الضخامة التى لم يسبق لها مثيل حتى لأصغر تفجير نووى .
- قدرتها على التدمير اللحظى لمدينة بكاملها أو جيش برمته ، ومن ثم انعدام القدرة الدفاعية لأى شخص يوجد فى منطقة الهدف .
- الأضرار الوراثية التى تنتقل إلى الأجيال المقبلة ، بالإضافة إلى تشويه الأجيال الحاضرة ؛ بسبب قوة الانفجار والنار والإشعاع .
- الأثر السيكولوجى الهائل لهذه القدرة على الإبادة .
- الاستحالة العملية للدفاع الفعال ( قسْ فى هذا الصدد بما يقوله من تبقى ممّن يؤمنون بمبادرة الدفاع الاستراتيجى SDI ) .
- الكوارث المناخية والبيئية والبشرية الناتجة من « الشتاء النووى » التى تصيب الدول المحايدة والبلدان الواقعة بعيدا عن حدود الدول المتحاربة .
- الاحتمال القوى لتصاعد أية حرب نووية محدودة إلى حرب شاملة ؛ ومن ثم الانتحار الفعلى للمتقاتلين .

ولقد أثار هذا كله شكوكا خطيرة حول كثير من المفاهيم الاستراتيچية الأساسية : « فالنصر » يصبح - عمليا - بلا معنى ، ولا يعود « التفوق » ضمانا للبقاء . إن الطريق قد انفتحت أمام أفكار جديدة عن أغراض التسلح ومنطق الحرب .

## هل هناك حرب رشيدة ؟

من المفارقات الحادة أن فيلسوف الحرب البروسى كارل ڤون كلاوزڤيتز ( ١٧٨٠ - ١٨٣١ ) الذى يُعده الحمائم أسوأ مثال شيطانى عرفته البشرية بعد مَكياڤيللى - هو الذى وضع الأساس لأهم نقد يوجَّه للاستراتيچيات النووية الحاضرة ، فقد عَرَّف كلاوزڤيتز الحرب بأنها « عمل من أعمال القوة لإجبار عدوّنا على تنفيذ إرادتنا » ، وتحدث بتفصيل تام عن تركيز الجهود - عند نشوب الحرب - على تدمير قوات العدو ؛ أى مصدر قوته ؛ وليس على تدمير العدو عموما . وكان من الغريب أنه أطلق على هذه الفكرة المتحضرة - نوعا - اسم « الحرب المطلقة » . بيد أن ما يدعو إلى الأسف أن العبارة التى تنسب إليه أكثر من غيرها هى أن « الحرب استمرار للسياسة بوسائل أخرى » ؛ مما يجعل الكثيرين ينظرون إليه باعتباره من المرتابين الذين يوصون بلا ضمير باستخدام الحرب عندما تفشل السياسة ؛ لتحقيق ما تريده دولة ما .

وبدون أية محاولة لتصوير كلاوزڤيتز فى ثوب القديس ؛ فإن لورد كارڤر وآخرون أوضحوا أن وجهة نظر ذلك الخبير العسكرى البروسى - هى على النقيض تماما ؛ فالحرب باعتبارها « استمرارا للتعامل السياسى مع إضافة وسائل أخرى » ؛ تعنى أنه يجب الحكم على أهداف أية حرب وأساليبها بالمعايير السياسية الأساسية ذاتها التى كانت تحكم السياسة قبل نشوء الحرب ، والتى ستستمر بعدها . فالحرب لا تحتاج إلى اللجوء إلى شريعة الغاب ولا تبررها .

وطبقا لإيضاحات لورد كارڤر ، فإن كلاوزڤيتز يعتقد أن الخسائر والدمار الناتج من الحرب ، والرغبة فى الانتقام التى تثور بسببها ؛ قد تؤدى إلى نقيض أغراضها ( أو مبرراتها ) الأصلية : فالمقصود بالحرب أن تفْضى إلى حالة سلم أفضل من وجهة نظر القائم بها ؛ على الأقل ، وبغير ذلك لا يكون لها أى معنى . وبالنسبة إلى كلاوزڤيتز ؛ فإنه

لم يكن يرى أنه لابد من دحر قوات العدو بصورة كاملة ، وكان يرى – أيضا – أنه لا ينبغى أن تصبح سياسة إحدى الحكومات خاضعة للاحتياجات العسكرية أو الاستراتيچية ، وإنما كان يرى النقيض ؛ أى أن تكون السياسة هى الحاكمة طوال الوقت ، والمعايير أسبابا ترجع إلى الدولة لا إلى الحرب فى حد ذاتها .

ولهذا المبدأ الأساسى عدد من النتائج التى سبق أن لخصها سون تسو ؛ منذ أكثر من ألفى عام – عندما قال إننا لا يجب ألا ننسى الحاجة إلى أن نعيش بسلام إلى جانب العدو بعد هزيمته ، وأن نحقق النصر فى أقصر وقت ممكن ، وبأقل خسارة ممكنة فى الأرواح ؛ بما فى ذلك أرواح العدو . فالحرب – بإيجاز – يجب أن تكون محدودة ، ومحسوبة ، وأن يراعى بُعْد النظر عند خوضها .

ومن المحزن – بطبيعة الحال – أن النقيض هو ما يحدث ؛ فمنذ أيام كلاوزڤيتز – وبالتأكيد ؛ منذ انتهاء الحرب الأهلية الأمريكية – اجتمع التصنيع ، ووسائل النقل الجماعى السريعة ، وسهولة الاتصال ، وسرعة استحداث الأسلحة ؛ اجتمعت كلها لتشجع على خوض « حروب مطلقة » من نوع مختلف تماما : مطلقةٍ فى نطاقها وكثافتها وما تثيره من ضغائن . وربما كانت ذروة هذه الحروب ، وذروة هذه النظرة إليها ؛ هى فكرة « التسليم بدون قيد أو شرط » وهذا بالطبع حتى ظهور القنبلة النووية .

## تعريف جديد للأمن : وجهة نظر البومة

لو طُبِّق تفكير كلاوزڤيتز على المرحلة الجديدة التى أصبح فيها التدمير الشامل واردا ؛ لَغَدا مجرد البقاء هدفا مشتركا ، ولأصبح الاستقرار الدولى أكثر أهمية مما كان عليه فى أى وقت مضى ؛ للدول الضعيفة والقوية على حد سواء ، ولوفَّر – أيضا – أساسا منطقيا للتعريف الجديد للأمن الذى نسعى إليه – وهذا – فى تقديرى – هو رأى البومة .

لقد كان اهتمام الصقور ينصبّ – تقليديا – فى الدفاع العسكرى والقوة العسكرية ، ثم فى النصر العسكرى عندما تصبح الحرب ضرورة ، وكان اهتمام الحمائم – على خلاف ذلك – منصبا فى المصالحة دون المواجهة ؛ بما يؤدى إلى سلام يقترن –

فى الحالات المثالية – بالعدل . ويحاول البومة أن يأخذ شيئا من كل من الرأيين ؛ فهو لا يستطيع أن يهمل أو يرفض الجانب العسكرى ، وبالمثل لا يستطيع أن ينكر التطلعات السامية للحمائم . وفى هذا العالم المحفوف بالمخاطر ؛ يأخذ البومة بالمعيار الرئيسى لكلاوزفيتز وهو العقلانية السياسية ؛ لتصبح المحافظة على الاستقرار الدولى ؛ ومن ثم تجنب الحرب النووية – الاهتمام الأول .

ولا ينبغى الخلط بين هذا الحرص على الاستقرار والسعى إلى إبقاء الأوضاع القائمة ؛ بأى ثمن يتحمله الضعفاء والعزل : ففى عالم تتغير أوضاعه بسرعة ؛ يحتاج تجنب نزاع لا موجب له فى الشرق الأوسط – مثلا – إلى اتخاذ تدابير دولية حاسمة ، مع اعتبار أن الاستقرار ليس مرادفا للرضاء بالأوضاع القائمة أو الاكتفاء بالسلبية .

وفى اعتقادى أن الخصائص الأساسية لوجهة نظر البومة إلى الأمن ؛ يمكن تلخيصها على النحو التالى :

- الأمن مقدَّم على الدفاع . فكلمة الدفاع تعنى – بدءا – أن الجانب العسكرى هو الجانب الحاسم ، ونادرا ما يكون الوضع كذلك ؛ حيث إن الأمن مفهوم أوسع من ذلك وأغنى ؛ وإن كانت القدرة على الدفاع العسكرى جزءا منه .
- الأمن إقليمى وكونى – أيضا – وليس وطنيا فقط ؛ ويكفى أن ننظر إلى مخاطر الأوبئة أو الإرهاب . ففى العالم المتكامل الذى تتم فيه الاتصالات على وجه السرعة ؛ أصبح الأمن الوطنى الخالص مستحيلا ؛ سواء بالنسبة إلى داود أو جوليات .
- الأمن الحقيقى يحمى الحريات الوطنية وأسلوب الحياة الوطنى وليس مجرد الاستقلال الوطنى . وهذا المفهوم الأوسع لتقرير المصير هو الذى يدعم أساسه الأخلاقى . فالأمن فى نهاية الأمر للشعوب وليس للدول فحسب .
- لهذا السبب ، ولأسباب أخرى ؛ فإن الأمن اجتماعى واقتصادى وثقافى قبل أن يكون دبلوماسيا – ناهيك عن أن يكون عسكريا .

● وبرغم ذلك يبقى الأمن السياسى والأمن العسكرى ضروريين . وفى رأيى ؛ أنه لا غنى عن إبقاء القوات المسلحة قادرة على ردع أو مقاومة أى هجوم خطير على المصالح الوطنية أو مصالح الحلفاء ( وبطبيعة الحال ؛ يمكن أن تكون هناك آراء مختلفة عديدة بشأن المشروعية ) .

● يجب أن تكون سياسات الأمن مفيدة ! إذ يجب أن تكون المنافع المحتملة - بما فى ذلك المنافع الناتجة من أى عمل عسكرى - أكبر بكثير من التكاليف ، ويجب أن يكون الناس مطمئنين إلى سياسات حكوماتهم ، لا إلى سياساتها إزاء المعتدين المحتملين فقط ؛ وإلاّ فلماذا يجب أن يؤيدوا حكومتهم فى مواجهة الهجوم ؟

وإذا استخدمنا لغة الملاّحين ؛ فإننى أرى أن كلاً من الصقور والحمائم يعتقدون - بثقة لا تتزعزع - بأن طريقهم وحده هو الذى يؤدى إلى المرفأ الآمن ، وأن الطريق الآخر سيؤدى إلى غرق السفينة . أما البومة فيرى أن كلاً من الصقور والحمائم يسيرون بالسفينة نحو الغرق ؛ وإنْ كان سبيل كل منهما مختلفا . فالبومة يرى أنه ليس هناك طريق آمن لأحد ، وأن هناك صخورا وجنادل فى كل مكان ، ومسارا ضيقا للملاحة نحو مياه أكثر أمنا ؛ لكنها لا تحقق الأمن الكامل أبدا . ويستطيع البومة أن يقرر واثقاً أن هناك طرقا سيئة ، ومادامت الأمور على ما هى عليه ، فهو لا يدعى أنه يستطيع أن يحدد طريقا آمنا - بشكل قاطع . إن البومة يعرف الاتجاه العام المرغوب ، ويعرف الصخور والبحار ( لأنه يهتم بهما أكثر مما يهتم بالنظريات ) ، وهو يعرف السلوك المتوقع من السفن وطواقمها ، ويتجاسر - أيضا - على تحمل مسئولية اتخاذ موقف عملى واقتراح تصرف محدد . إن البومة لا يكتفى بإلقاء الكلمات والبيانات .

## نظرة البومة إلى الأسلحة النووية

ليكن الأمر كذلك ؛ ولكن كيف ينظر البومة إلى مسألة الأسلحة النووية ؟ إن البومة - حسب لورد كارفر - يقول إن الحرب النووية ليست حربا : فهى ليست وسيلة يمكن من

خلالها تحقيق أهداف معقولة ، ويصعب أن يترتب عليها سلام أفضل من السلام الذى كان سابقا عليها أيا كانت عيوبه ، ولا يتوقع منها أن تسفر عن ظروف أفضل ؛ حتى من أسوأ أشكال القمع السياسى . ولذلك ؛ فإن الاستعدادات التى تُتخذ لشن الحرب النووية هى استعدادات غير معقولة ؛ إذ لن يكون فيها « انتصار » ، ولن يستطيع أحد أن « يسود » فيها ، ولن يكون فيها منفعة صافية وإن كانت ضئيلة . ولهذا ؛ يجب أن يكون تجنب الحرب النووية هو الأولوية الرئيسية لدى رجل الدولة : فليس هناك – على الإطلاق – ما يمكن أن يكون أسوأ منها .

قد يقول البعض إن أى شىء أفضل من الاستسلام والعار ! ويبدو ذلك قولا عظيما ومؤثرا إلى حد ما ، ومن المؤكد أنه لَغْو فارغ – أيضا – وربما يكون لغوا ضارا . ولقد تمسكت الأخلاقيات العسكرية – دائما – بأن الاستسلام يكون صوابا عندما تصبح الهزيمة حتمية ( أو يصبح الانتصار انتحارا ) ، ولا يمكن أن يتحقق أى مكسب بالمزيد من فقد الأرواح . هل يستطيع أحد أن يقول جادا : إن وقوع مذبحة عامة فى وسط أوربا ، تجمع بين المقاتلين والمدنيين ، وبين الصديق والعدو – ستكون أفضل من إخضاع غرب أوربا ؟ وهل من الصحيح – حقا – أن من الأفضل أن يموت المرء على أن يكون شيوعيا ، أو رأسماليا مخلصا ؟ فى اعتقادى أن هذه أقوال تبعث على السخرية .

كما أن هذه الأقوال تعتبر من الناحيتين الروحية والأخلاقية – غير مقبولة على الإطلاق ؛ فهى تنبع من الرأى القائل بأنه لا أمل فى التخلص من الحكم الشيوعى – مثلا ، وبإن شرور هذا النظام كاملة وشاملة ؛ بحيث لا يمكن أن يغيّرها لا مرور الوقت ولا استثارة الروح الإنسانية ولا الحب – أيضا .وفى رأيى أن هذا الاعتقاد خاطىء ، وهو من سمات البارانويا ، وسخيف ، ولكنه – أيضا – تعبير عن اليأس فى نهاية الأمر ؛ فهو – فى واقع الأمر – يقول إنه يمكن أن تكون هناك حياة فى ظل الشيوعية ، ولكن بدون أمل . وكم يكن ذلك صحيحا حتى بالنسبة إلى معسكر أو شفيتز .

ولذلك ؛ فإن البومة يقول إن الحرب النووية هى أسوأ الشرور التى يمكن تخيلها : أسوأ حتى من الحكم الأجنبى الشمولى . وللأسف ؛ ليس هذا هو الخيار الذى تطرحه علينا الحياة . وما يجب على الدول فرادى وعلى التحالفات أن تقرره هو ما إذا كان يجوز المخاطرة – وإن كانت بقدر ضئيل – بالدمار النووى ؛ لتجنب خطر أكبر من تهديد نووى مضاد يؤدى إلى الخضوع والاستعباد ؛ إنْ آجلا وإنْ عاجلا .

وما أؤكد عليه هنا هو أن البومة يدرك – تماما – التعقيدات المرتبطة بالموضوع : فليس مما يستنتج – كمثال – من الوضوح الكامل لعدم منطقية الحرب النووية ( كما أراها ) ؛ ليس من ذلك أن حيازة الأسلحة النووية لم تساعد فى ردع حرب كبرى بين حلفَى الدولتين العظميين – ربما تكون قد فعلت ذلك . والقضية ليست هى ما إذا كانت الأسلحة النووية « قابلة للاستعمال » ؛ وإنما هى ما إذا كان قادة الدولتين العظميين قد فكروا فى أنها يمكن أن تستخدم فعلا ؛ ومن ثم قد غيروا مسلكهم . وحتى فى هذه الحالة ؛ فإن الأسئلة الرئيسية بالنسبة إلى البومة ليست أسئلة عامة بشأن قدرة الأسلحة النووية على الردع ، وإنما هى – على سبيل المثال – إلى أى مدى تستطيع تلك الأسلحة أن تحقق الردع ؛ من دون زيادة احتمالات نشوب حرب نووية .

وكما ذكرت آنفا ؛ فإن البومة يعتقد – وإن كان على مضض – بأنه سيكون فى الوسع – دائما – أن يعاد اختراع الأسلحة النووية ؛ مادامت قد وجدت ، وان الدول الكبرى ستجد – دائما – إغراء قويا على إعادة استحداثها فى أوقات الأزمة ، وأن كان ذلك على سبيل الاحتياط . وعلى أساس هذا التحليل ، فإن الأسلحة النووية ستظل – دائما – موجودة فى الترسانة الخلفية ؛ مهما بلغ المدى الذى نقطعه للحد منها . ولذلك ؛ فليس من المتوقع أن يأخذ الكثير من الدول النووية مسألة « إلغاء » هذه الأسلحة ؛ مأخذ الجِد ؛ مهما دعا خطابهم العلنى إلى ذلك . أما مصلحتهم الحقيقية فتتمثل فى خفض الأسلحة والحد من التسلح – وهذا أمر مختلف تماما .

وبرغم ذلك ؛ فإن البومة لا يرى – بأية حال – أن الأسلحة النووية سيكون لها استخدام واقعى فى القتال . وهو يرى أن غرضها المنطقى الوحيد هو ردع أية جهة

أخرى عن استعمالها . ونظريا ؛ من الممكن أن يستخدم عددٌ قليل من الأسلحة النووية فى البحر ؛ بدون أن تحدث خسائر بشرية أو بيئية خطيرة ؛ بيد أن اقتحام الحاجز النفسى الحاسم يجعل حتى من هذا التحفظ أمرا ضارا للغاية . ولهذا ؛ فإن البومة يريد أن يتحرك صوب وضع تكون فيه هذه الأسلحة تهديدا مضادا حاسما لأى احتمال للابتزاز النووى ، ومن ثم لسياسة ما أطلق عليه اسم « الحد الأدنى من الردع الدفاعى » .

## الضجة الأخلاقية

وعدتُ - فيما سبق - بالعودة إلى المسألة الأخلاقية . ولا شك فى أن الحمائم سيطالبوننى بذلك ؛ مادمت قد وجدت نفسى مدفوعا إلى قبول القول بأن الاحتفاظ بالأسلحة النووية لردع الآخرين عن استعمالها - أمر يمكن تبريره ، وهم يجدون ذلك غير مقبول على الإطلاق . ولكن قبل أن يصدروا حكمهم علىَّ ؛ فليسمحوا لى بأن أدافع عن نفسى ببضع كلمات .

أولا ؛ إننى أفكرَ فى وضع الولايات المتحدة - مثلا - فى مواجهة الاتحاد السوفييتى . وفى حدود فهمى ؛ حتى الحمائم لا يطلبون من واشنطن أن تتخلى من جانب واحد عن جميع أسلحتها النووية ؛ قبل أن تفعل موسكو ذلك .

ثانيا ؛ فإن المعيار الرئيسى لدىَّ هو تجنب الحرب النووية وليس الشر المتمثل فى تلك الأسلحة - فى حد ذاته - وهو أمر معقد يسهل الشعور به ويصعب التعبير عنه . كما أن تجنب الحرب مسألة عملية وتجريبية وليس مسألة أخلاقية « خالصة » ( إن كان هناك - حقًا - شىء بهذا الوصف ) .

ثالثا ؛ أرى أن استبقاء الدولتين العظميين فى حوزتهما أدنى تقدير كمى من الأسلحة النووية - وهو أمر يمكن فهمه - ليس مبررا مقبولا لأن تحتفظ دول أخرى - ولْنَقل بريطانيا وفرنسا - بهذه الأسلحة أو تحوزها . وقد يبدو هذا التمييز غير عادل بالنسبة إلى الدول الأصغر ؛ لكننى أنشد أن أكون عمليا فى نطاق الوضع مثلما هو قائم فى الوقت الراهن .

رابعا ؛ فإن الموافقة للدولتين العظميين على الاحتفاظ ببعض الأسلحة النووية ، لا تعنى بصورة آلية الموافقة على السياسات التى تتبعانها - حاليا - فى المجال النووى ؛ فتلك السياسات يجب أن تتغير تغييرا جذريا .

خامسا ؛ فإننى أتمسك بالاعتراض الشديد على مجرد فكرة التهديد النووى . ويقول أحد أصدقائى ؛ الكاتب باتريك ريفرز إننى - برغم ذلك - أؤيد « الحد الأدنى من اللاأخلاق » ؛ وهو على حق فى ذلك . وهو يظن أن هذا الموقف من جانبى مخجل ، وأخشى أن يكون أى موقف آخر غير عملى أو ما هو أسوأ من ذلك .

سادسا ؛ آمل فى أن تكون سياسة الاعتماد - إلى أقل حد ممكن - على التهديد النووى ؛ مرحلة مؤقتة على طريق الوصول إلى نظام عالمى يستطيع أن يتخلص منها نهائيا ( وإنْ كان ذلك يعتمد على عقوبات قاصمة أشد حتى من تلك التى يمكن أن يطبقها داعية استخدام السلاح النووى ) .

وإنى لأعترف بأن شكوكا قوية تساورنى بشأن ما إذا كان موقفى ( أو موقف الفاتيكان وموقف الكثير من كنائس إنجلترا ) يمكن أن يوصف - باطمئنان - بأنه موقف مسيحى ، ولا شك فى أنه يمثل مسيرة طويلة تبتعد عن موعظة الجبل ، ولكننى آمل فى ألاّ يستبعد بدعوى أنه رد لاأخلاقى سافر على هذا العالم النووى القائم فى الوقت الحاضر .

## دور أخير ثانوى

ما هو الهدف النهائى لسياسة البومة ؟ إنه العمل - بالتدريج - على ألاّ يعود للأسلحة النووية سوى دور ثانوى ، وزحزحتها إلى مكان على هامش التاريخ فى المستقبل . فمن الواجب أن نعرف كيف تنظر إليها لا كمجرد سلاح فات أوانه وإنما كعوامل غير ذات إرتباط أساسى بالترتيبات الدفاعية العملية ، فى حين أنها الآن جوهر هذه الترتيبات . ليست هناك وسيلة سحرية يمكن أن تختفى بها الأسلحة النووية ، ولكن - كما يذكر ستان ويندلس - يمكن أن تكون هناك وسيلة لجعلها أشبه بصولجان يمكن أن يقتل ولكنه لا يستخدم إلا كرمز للسلطة . ووفقا لهذا الرأى ؛ فإن الرؤوس الحربية النووية

يمكن أن تمثل قدرة الردع النهائية ؛ لكنها قدرة غير قابلة للاستخدام فى عالم تجاوزت أطوار نموه مرحلة المراهقة النووية . بيد أن هذا الوضع يُعَدُّ إنجازا مستحيلا - من الناحية العملية - مادام معظم قادة الغرب - وكثير من القادة فى مناطق أخرى - مقتنعين بأن الاتحاد السوفيياتى لا يزال يمثل خطرا محتملا .



توزيع
دار البيادر للنشر والتوزيع
٢٥ شارع جزيرة العرب / المهندسين
ت : ٣٤٤٤٣٣٠

مطابع المنار العربي
١ شارع العامل الأول - امبابه
ت : ٣٤٥٢٢٦٤



توزيع دار البيادر للنشر والتوزيع